بغداد عاصمة الادب العباسي*

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

تمهيد

لقد اصبح من النافل ان نتبسّط في البرهان على تأثير البيئة في الادب، ودلائلُ هذا التأثير ظاهرة واضحة في الفنون الادبيّة جميعها، بل في ما وراء ذلك من مفردات وتعابير لغوية. حتى اجمع ذوو البحث على ان البيئة تكيّف الفرد بل الشعب، وتسم بسمتها الخاصة كل ما يولده هذا الشعب من آثار متنوّعة المظهر والغاية، فلخّصوا ذلك بالقول المأثور: «الانسان ابن بيئته!»

وما كان الشعب العربي ليشذّ عن هذا الناموس، وما كان الادب العربي ليبقى بمعزل عن هذا التأثير. ونحن لا نفهم الشعر الجاهلي حقّ الفهم، بل لا ندرك معاني التعابير العربية نفسها، الا اذا عرفنا حياة العرب في تلك الصحراء القاحلة، الحارّة، القليلة المطر؛ فنفقه اذ ذاك لماذا يدعو العرب بالشرّ فيقولون: اسخن الله عينك! ويدعون بالخير فيقولون: سقاك الله! رعاك الله! واقرّ الله عينك! ثم يغدقون الرحمات على قبور موتاهم فيتمنّون الرطوبة لثراها ويبكون عليها «الغوادي الرائحات»! وهم، لو عاشوا في بلاد غزيرة المياه، شديدة البرد، لعكسوا تعابيرهم دون شك، فتمنوا الجفاف لقبور موتاهم، والدفء والحرارة لاحبابهم![1]

هذا مثال ضئيل على تأثيرات البيئة الجغرافية المادية. فكيف بها، لو

---

* مادة المحاضرتين الاولَيين من محاضرات «معهد الآداب الشرقية»، في فرع «الفلسفة والآداب السامية».

1) راجع في ذلك ما كتبناه في «المشرق» (٣٠ [١٩٣٢]: ٢٠٥-٢٠٦).

اقترنت بتلك البيئة عوامل خُلقية شتى ، ومظاهر ثقافيـة متعدّدة ؛ كما كانت الحال في بغداد العباسيين ، في القرنين الاول والثاني لتأسيسها ؟

هو مجال رحب سنحاول جوسه شيئاً فشيئاً مستندين بالاكثر الى ما تركه لنا القدماء من معلومات واحاديث واساطير ايضاً ، اذ ان للاساطير قيمتها ، لا في معرفة تاريخية الامر الدائرة حوله ، بل في الدلالة على عقلية واضعيها وناقليها. فندرس اولاً تأسيس بغداد وازدهارها ، ثم تمازج العناصر البشرية فيها ، وما كان لها من اثر في تكوين ذاك الادب العبـاسي . ونزيد بالادب العبـاسي مجمل المولّدات العقلية المطبوعة بطابع تلك الثقافة الخاصة بالقرنين الاولين من حكم العباسيين ، قبل ان تتشعّب السلطة ، فتتعدّد عواصم المدنية والادب.

١

تأسيس بغداد وازدهارها

اسم بغداد

لمؤلفي العرب آراء عديدة وتخريجات متنوّعة في شرح هذه اللفظة ، شأنهم تجاه كل لفظة غريبة عن لغتهم. وقد جمع ياقوت[1] اكثر هذه الآراء . واشهرها ما نُقل عن بعض الاعاجم من ان معنى بغداد : بستان رجل اسمه داد ، من الفارسية باغ او بغ = بستان ، وداد او داذ = اسم الرجل.

وقال غيرهم: بل بغ = اسم صنم ، وداد = عطية . وأصل ذلك ان كسرى كان قد اقطع احد خصيانـه هذا المحل فقال : بغ دادي ، اي : الصنم اعطاني .

وقد نقل ابن الجوزي[2] قول عبد الله بن المبارك في بغداد : « ان بغ شيطان ،

---

١) ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld)، ليبسك ١٨٦٦ ، ١ : ٦٦٧ – ٦٧١

٢) ابن الجوزي : مناقب بغداد (طبعة الاثري) ، بغداد ١٣٤٢ (١٩٢٣) ، ص ٦

وداذ عطيته ، فانها بشرك » . . .

واراد حمزة بن الحسن ان يشرح ، لا اصل اسم « بغداد » فحسب بل اصل معنى « دار السلام » ايضاً فقال ، في ما نقل ياقوت : « بغداد اسم فارسي معرّب عن باغ داذويه ، لانّ بعضَ رُقعةِ مدينة المنصور كان باغاً (= بستاناً) لرجل من الفرس اسمه داذويه . وبعضها اثر مدينةٍ دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطّها فاعتلّ . فقالوا : ما الذي يأمر الملك ان تُسمّى به هذه المدينة ؟ فقال : « بِليدوه وروز » اي : خلّوها بسلام . فحكي ذلك للمنصور فقال : سمّيتُها « مدينة السلام » . (كذا !)

ولهم كذلك اختلاف في لفظها . فهي بغداد ، وبغداذ ، وبغدان ، ومغداد ، ومغداذ ، ومغدان[1] .

وزاهم في تعليلاتهم هذه لا يتجاوزون اللغة الفارسية .

على اننا نجد ذكرًا قديماً لبغداد في الآثار المسمارية حيث ورد اسمها بصيغة بَغْدَدو او بَكْدَدو على حدٍّ يرقى الى عهد الملك البابلي مردخ بلدان الاول (١١٩٤–١١٨٢ ق. م.)[2] . ولكن ستريك[3] يضعّف هذا الرأي ، ويرى ان الفرضية لا تظهر قابلة للاحتمال بحجة ان قراءة لفظة بَكْدَدو غير ثابتة ، وانه ليس من الممكن ان نرقى باسم ايراني الاصل الى زمن بعيد في القِدَم هذا البعد . اما قراءة لفظة بَكْدَدو فعليها كثير من العلماء ، وقد اوردها مؤخرًا اصحاب

---

١) اطلب في اسماء بغداد وشرحها الخطيب البغدادي في : G. Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Baghdâdh d'al-Khatîb*, Paris, 1904, p. 23-24

وسلمون يشير في احدى حواشي الصفحة ٢٤ الى رأي ارطيخيوس (Eutychius, *Annales* (éd. Pococke, II, p. 399) القائل ان بغداد اسم راهب كان يسكن الدير القائم بمكان مدينة المنصور حين قصد الخليفة بناءها . وهو غريب .

واطلب ايضاً في اسماء بغداد ملاحظات دي غوبه في المجلة الاسيوية *J. As.* série X, t. 3, 1904, p. 159

٢) اطلب في ذلك : Scheil, *Mém. Délég. en Perse*, VI, 1905, p. 31 ss.

٣) Streck, *Baghdâd* [*Encyclop. de l'Islam*, I, 575]

« الدليل الازرق » ايرادهم لامر ثابت[1] . واما كون اصل لفظة بغداد ايرانياً — وستريك يؤكد ذلك تأكيد قدماء مؤلفي العرب ويشرحه بمعنى «عطية الله»[2] — فهو ما نشكّ فيه ، وقد عرفنا قِدَم اللفظة ، وقِدَم المدينة نفسها بشهادة ما وجد فيها بعض العلماء من آثار الرصيف الآجري الراقي الى عهد بختنصر الثاني (٦٠٤—٥٦١) . فان راولنصون في السنة ١٨٤٨ ، وأوبرت في السنة ١٨٥٣ ، وبونيون وهارپر في السنة ١٨٨٩ وجدوا في بغداد ، على رصيف الشاطئ الغربي من دجلة ، قطعاً من الآجرّ محفوراً فيها اسم بختنصر الثاني[3] . ولا يزال ظاهراً قسمٌ من هذا الرصيف الكلداني حتى ايامنا هذه ، على قول ستريك ، واصحاب « الدليل الازرق » ، وماسينيون الذي ذكر موقع تلك الآثار في محلّة خضر الياس في الكرخ[4] .

افلا يكون اسم بغداد سابقاً للعهد الفارسي ؟ وهل من غرابة في ان يكون آرامي الاصل ، وهو اسم محلة في بقعة نزلها الآراميون منذ القدم بشهادة اسماء عدة اماكن في جوار بغداد كالكرخ والشماسية وغيرهما ؟ أوَ نكون على خطأ اذا قلنا ان لفظة « بغداد » اصلها بيت گداد جمع گدو الآرامية ومعناها « بيت القطيع » او « الحظيرة »[5] ، فاكتفي بالباء من « بيت »[6]

---

١) اطلب *Syrie — Palestine — Iraq — Transjordanie.* [« *Les Guides bleus* » *sous la direction de* Marcel Monmarché] Hachette, Paris, 1932, p. 480

٢) وراجع ايضاً — Streck, *loc. cit.*, p. 574-575 G. Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900, p. 11

٣) يشير ستريك الى كل هذا ذاكراً مصادر منها :

H. Rawlinson, *Baghdad* [*Encyclop. Britannica*, II, 234. a].

J. Oppert, *Expédit. scientif.*, I, 92

٤) L. Massignon, *Mission en Mésopotamie* 1907-1908, t. II. *Epigraphie et topographie historique* [*Mémoires de l'Inst. français d'arch. orientale du Caire*, XXXI], 1912, p. 91, note 3

٥) كما يشملها ابن جلول (طبعة Rubens Duval) عمود ٤٤٦

٦) وهي ظاهرة لغوية معروفة راسخة الانتشار ، ولاسيما في لبنان في القرى الآرامية

واصبحت اللفظة بكداد او بغداد . ثم عُرّبت بتنقيط الذال الاخيرة فقـدت بغداذ ، واخذ اللغويون من ثمّ في شرحها عن طريق الفارسية.

واذًا فقد يكون من الممكن ، بدل ان نشكّ في قدم ذكر بغداد بحجة اسمها الايراني ، ان نشك في ايرانية هذا الاسم بدليل قِدَمه ...

قدم بغداد

ومهما يكن من امر فلا شك في قِدَم محلة بغداد ، وفي وجودها قبل ان يفكر المنصور ببناء مدينته ، بل قبـل ان يصل المسلمون الى ارض العراق . وقد ذكر ستريك ان التلمود يشير اليها مرتين على كونها سابقة لهذا العصر[1] . وذكر مؤرخو العرب انها كانت سوقًا جامعة يقصدها تجار العراق وفارس وسائر البلاد المجاورة ، بل تجار الصين انفسهم ، على قول ياقوت[2] ، وهي هذه السوق التي اغار عليها المثنى بن حارثة الشيباني ، القائد المسلم ، ابان عقدها ، فنهبها ، في اول الفتوح الاسلامية السنة ١٣ للهجرة (٦٣٤ م) كما يروي ابن الجوزي وياقوت عمن تقدمهما من المؤرخين . وخلاصة الخبر ان اهل الحيرة اخبروا المثنى عن هذه السوق وما يجتمع فيها من الاموال ، فسار بعسكره حتى اتى الانبـار فكلّم سُفروخ مرزبانها وأمّنه على شرط ان يمدّه في مشروعه ، قائلًا : « اريد ان اغير على سوق بغداد واريد ان تبعث معي ادلاء فيدلوني الطريق ، وتعقد لي الجسر لاعبر عليـه الفرات . ففعل المرزبان ذلك . وقد كان قطع الجسر قبل ذلك لئلا تعبر العرب عليه . فعبر المثنى مع اصحابه ، وبعث معـه المرزُبان الادلاء ، فسار حتى وافى السوق ضحوةً فهرب النـاس وتركوا اموالهم — ويقول ابن

الاسماء ، كما نرى في بتدين = بيت الدين ، وبكيفا = بيت كيفا (اي بيت الصخرة) ومثلها كثير .

١) Streck, *loc. cit.*, p. 575

٢) ياقوت : الكتاب المذكور ١ : ٦٧٨ — ولم يترك ياقوت هذه الفرصة تذهب سدى ، فاستخرج اسم بغداد من اسم ملك الصين ، قال : « وكان اسم ملك الصين بغ فكانوا (تجار الصين) اذا انصرفوا الى بلادهم (بارباحهم الطائلة من تلك السوق) قالوا : « بغ داد » اي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك . »

الجوزي : بل ان المثنى « وضع فيهم السيف »[1] — فاخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر الامتعة ما قدروا على حمله . ثم رجعوا الى الانبار ووافى معسكره غانماً موفوراً . »[2]

وحول تلك السوق ، على الضفة اليمنى ، كان كثير من القرى والمزارع الآرامية دخل بعضها في تكوين حي الكرخ وما اليه في جنوبي الجانب الغربي من بغداد الكبرى. وقد ذُكر من تلك القرى بَياوَري او بَنَاوَري ، وسال ، وشوانية ، وسونايا ، ووردانية ، وورثال او وَرْثالة ، ويراثا ، واشهرها مدينة الكرخ. واسمها آرامي الاصل معناه « المدينة المحصَّنة » . وهي قديمة ينسب بعض المؤرخين بناءها الى سابور الثاني (٣١١—٣٨٠) . وليس غريباً ان تكون الكرخ المدينة المهمة المسوّرة قبل الاسلام ، وان يكون كل ما تقدم ذكره من المحالّ ، حتى بغداد ، من مزارعها وبساتينها .

وفي النصف الاعلى من مدينة المنصور ، في الربع المسمّى الحربية ، كان قبل العهد العباسي مدينتان معروفتان هما الخطابية والشرقانية .

وكل هذه الاماكن كانت مشهورة ببساتينها ورياضها على عهد الساسانيين ، بفضل ما كان يخترقها من الانهر والاقنية المتفرّع اكثرها عن الفرات حتى يصبّ في دجلة (اطلب الرسم ٢) ، كما يظهر لمن يلقي نظرة اجمالية على ما تصوّره لوسترانج من نظام شبكة الريّ في تلك الناحية ، في عدة خرائط[3] قد يتناولها نقد مساسينيون في ما خصّ انهر الكرخ[4] ، ولكنها تلخّص على اسهل طريقة معلومات مؤرخي العرب في هذا الشأن ، تلك المعلومات التي استفاد منها سالمون فكتب فصلاً وافياً في « سواد العراق ونظام الريّ في بابل »[5] .

---

١) ابن الجوزي : الكتاب المذكور ، ص ٧

٢) ياقوت : ك.م. ١ : ٦٧١

٣) G. Le Strange, *op. cit.*, Map. III, IV, V, VI...

٤) L. Massignon, *op. cit.*, p. 118-119

٥) G. Salmon, *op. cit.*, p. 32-42

وقد كان ينزلها ملوك الساسانيين احياناً ، وهي على مسيرة يوم من عاصمتهم المدائن (نحو ٣٠ كيلومتراً) ، فيقيمون في قصر بنوه على مقربة من مصبّ نهر عيسى . وهو القصر الذي تحوّل اسمه في ما بعد الى « قصر عيسى » .

فيتضح مما تقدّم ان المنصور لم يبنِ مدينته في مكان مقفر من السكان.

اما هؤلاء السكان فكانوا في اكثرهم من العنصر الآرامي الغالب على تلك الانحاء ، بدليل اسماء الاماكن الآرامية الاصل والصيغة احياناً ، وبدليل ما نعرفه من كثرة الديورة النصرانية الزاهرة على عهد الساسانيين . ولا يخفى ان قصر الخلد الذي بناه المنصور على الضفة اليمنى ، بعد بناء مدينته ، كما سنرى ، قام محل دير قديم . وانه كان في جوار مصبّ الصراة في دجلة ديرٌ آخر[1] ترك اسمه لذاك الحي باجمعه فكان الناس يدعونه حتى بعد العهد العباسي « الدير العتيق » . ويذكر ياقوت ايضاً بيعةً كانت في موضع مدينة المنصور[2] .

بيد ان كل ما تقدم ذكره من القرى والمزارع كان ابعد من ان يمثّل الدور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والادبي الذي مثلته بغداد . وعليه يمكننا ان نقول ان المنصور انشأ حقاً مدينة بغداد .

لماذا اختار المنصور هذا الموقع ؟

كانت دمشق ، عاصمة الدولة البائدة ، لا تزال مخلصةً امينة لخلفائها الامويين . وهي ، فضلاً عن ذلك ، اصبحت كثيرة الانحراف نحو الغرب بالنسبة الى مملكة كان اكثر اتساعها الى الشرق من البحر المتوسط حتى نهر الاندوس.

فكان من الضروري ان تحوّل الدولة الجديدة مركز حكمها من الشام. ولم يكن من المعقول ان تعود به الى الحجاز ، وقد فقد اهميته السياسية منذ عصر الراشدين ، فضلاً عن انحرافه عن متوسط العالم الاسلامي . واذا ذكرنا ما قام به الفرس ، ولاسيما الخراسانيون ، من الجهود والتضحيات في نصرة بني العباس ، قدّرنا ان العاصمة الجديدة ستتجه نحو بلاد فارس ، فتكون الدولة

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨١ ٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٠

الحديثة قريبة من انصارها ، ويكون مقامها متوسطاً بين الفرس والعرب ، وهما العنصران المهمان في الجامعة الاسلامية اذ ذاك .

فكر السفاح بهذا الامر ، فجعل مركزه اولاً على شاطئ الفرات . ولم يقم في البصرة لانحرافها عن المتوسط الجغرافي المقصود . وتجنب الكوفة ، عاصمة علي ، لتعلق اهلها بالعلويين تعلقاً شديداً كان يخشى منه العباسيون . فبنى الهاشمية ، موسعاً قصراً كان لابن هبيرة . ثم اختط تجاهه مدينة جديدة سماها الهاشمية ايضاً ، واتمها المنصور بعده [1] .

اما المنصور فاقام في الهاشمية مدة ، ثم شعر باذى من جيرانه اهل الكوفة الذين كانوا « يُفسدون جيشه » ، على قول المؤرخين . ولا ننسَ ان العباسيين انما نالوا الخلافة بفضل الفرس العلويين الذين لم يثوروا على بني امية الا لارجاع هذا الحق الى اصحابهم من ابناء علي ، لا لاعطائه بني العباس . فكان ان هؤلاء ، عندما تخلصوا من الامويين ، ضبطوا الحكم وعملوا على التخلص من احزاب العلويين . فقتل المنصور ابا مسلم الخراساني ، « صاحب الدعوة » ، مَن كان اعظم مؤسس للخلافة العباسية على غير قصدٍ منه ، ثم تخلص كذلك من ابراهيم الثائر في البصرة . فاضحى يتجنب جوار العلويين فابتعد عن الكوفة والبصرة ؛ وخشي ان يكون عرضةً لزحف قد يقوم به الفرس فجعل دجلة بينه وبينهم ، واختار موقع بغداد على الضفة اليمنى .

وهنا يتبسط مؤرخو العرب في اسباب هذا الاختيار . وكلها تعود ، في نظرهم ، الى جودة المناخ ، وخصب الموقع ، وحسن مركزه الاقتصادي والتجاري والسياسي .

اما جودة المناخ فنسبيّة . لان بغداد لا تعلو عن سطح البحر الّا ٣٧ متراً وهي في منطقة حارة [2] ، تكتنفها المياه البطيئة السير ولا يندر ان تؤلف ،

---

١) ياقوت : ك . م . ٤ : ٤٤٦

٢) يندر جداً ان يسقط الثلج في بغداد . فاذا سقط اهتمّ به الناس وارّخه المؤرخون . من ذلك ما ذكر ابن العبري في تاريخ السنة ٣٩٦ للهجرة (٩٠٨ م) قال : « سقط ببغداد ثلج كثير من بكرة الى العصر ، فصار على الارض اربع اصابع . وكان معه برد شديد ، وجمد

بسبب فيضان دجلة ، مستنقعات يتوالد فيها كثير من البعوض والذباب[1] . ولعلها كانت ، قبل ان تكثر فيها السكان ، اقلّ فضلات ، وانقى هواء.

واما خصب البقعة فمشهور بفضل وقوعها بين دجلة والفرات في نقطة اقترابهما احدهما من الآخر ، وبفضل ماكان يخترقها من الاقنية او الانهر السائرة بين النهرين الكبيرين ، القائمة بريّ تلك البقعة بجملها ، كما قدّمنا.

واما حسن المركز الاقتصادي والتجاري والسياسي فناتجٌ عن موافقة الموقع في بقعةٍ متوسطة بين مراكز المدنيات الزاهرة منذ القدم من البابليين الى الاشوريين الى الفرس الاول الى السلوقيين الى الساسانيين الى البيزنطيين ، حتى كانت تلك البقعة نقطة اتصال بين الامم المختلفة فازدهرت فيها بابل ، ثم سلوقية ، ثم المدائن ، واخيراً بغداد في العصر الذي يهمنا امره.

انتبه مؤرخو العرب وجغرافيوهم لهذه الاسباب فذكروها في القول على تأسيس بغداد. انما اضافوا اليها شيئاً من الحكايات والاساطير يصعب تحقيقها . فخلطوا المحتمل بالممتنع والمعقول بالمستحيل . وقد يكون من المفيد ان نذكر مثلاً على كل من هذين النوعين.

من النوع الاول ما ذكره كل المؤرخين ، على شيء من الاختلاف في الرواية ، قالوا: « ان المنصور استشار دهقان بغداد في موضع البناء فقال الدهقان: « الذي اراه ، يا اميرَ المؤمنين ، ان تنزل في نفس بغداد . فانك تصير بين اربعة طساسيج[2] : طسوجان في الجانب الغربي ، وطسوجان في الجانب الشرقي فالذان في الغربي قطرُبّل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى . فان تأخر عمارة طسوج منها كان الآخر عامراً . وانت ، يا امير المؤمنين ، على الصراة ،

الماء والمقلّ والبيض وهلك النخل وكثير من الشجر . » (تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) بيروت ، ١٨٩٠ ، ص ٢٦٩) . والبرد يشتدّ ، شتاء ، في اكثر السنين ، حتى يلتزموا ان يضرموا النار للاستدفاء.» (البستاني: دائرة المعارف ٥ : ٥٠٥)

١) وقد اشار جلّ من ذمّوا بغداد، شعراً ونثراً ، الى كثرة ما فيها من السيل والزلل والهوامّ . اطلب شيئاً من ذلك في ياقوت : ك. م. ١ : ٦٩٠-٦٩٢

٢) ج. طسوج : الناحية ، القرية.

ودجلة تجيئك بالميرة من القرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان . وتُحمل اليك طرايف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك ميرة ارمينية واذربيجان وما يتصل بها في تامرّا ، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوّك . الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل اليك عدوّك وانت قريب من البرّ والبحر والجبل . ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك . »[1] فاقتنع المنصور.

ومن النوع الثاني ما تناقله المؤرخون ايضاً مما يمكننا تسميته باسطورة «مِقلاص» ، وقد اشار اليها ابن الجوزي والخطيب البغدادي بشيء من الاختصار ، ووردت مفصّلة في الفخري ومعجم البلدان ، وهي عن علي بن يقطين ، قال:

« كنت في عسكر ابي جعفر المنصور حين سار الى الصراة يلتمس موضعاً لبناء مدينة. (قال) فنزل الدير الذي على الصراة في العتيقة . فما زال على دابته ذاهباً جائياً منفرداً عن الناس يفكّر. (قال) وكان في الدير راهب عالم فقال لي: كم يذهب الملك ويجيء! قلت : انه يريد ان يبني مدينة . قال : فما اسمه؟ قلت : عبد الله بن محمد . قال : ابو مَن ؟ قلت : ابو جعفر. قال: هل يلقب بشيء ؟ قلت : المنصور . قال : ليس هذا الذي يبنيها . قلت : ولِمَ ؟ قال : لانّا قد وجدنا في كتاب عندنا نتوارثه قرناً عن قرن ان الذي يبني هذا المكان رجل يُقال له « مقلاص » . (قال) فركبت من وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال لي : ما وراءك ؟ قلت : خيرٌ القيه الى امير المؤمنين وأُريحه من هذا العناء . فقال : قُلْ. قلت : امير المؤمنين يعلم ان هؤلاء معهم علم . وقد اخبرني راهب هذا الدير بكذا وكذا . فلما ذكرت له «مِقلاص» ضحك واستبشر ونزل عن دابته فسجد واخذ سوطه واقبل يذرع به. فقلت في نفسي: لحقه اللجاج . ثم دعا المهندسين من وقته ، وامرهم بخطّ لرماد. فقلت له :

---

١) راجع خصوصاً ياقوت : ك.م. ١ : ٦٨٠-٦٨١ ؛ وابن الجوزي : ك.م. ص ٨ ؛ وابن العبري : ك. م. ، ص ٢١١ ؛ والطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن ١٨٨٠ ، ٣ : ٢٧٥

اظنك ، يا امير المؤمنين ، اردت معاندة الراهب وتكذيبه . فقال : لا والله . ولكني كنت ملقباً بمقلاص . وما ظننت ان احداً عرف ذلك غيري . وذلك اننا كنا بناحية الشراة ، في زمان بني امية ، على الحال التي تعلم ، فكنت انا ومن كان في مقدار سني من عمومتي واخوتي نتداعى ونتعاشر . فبلغت النوبة اليّ ، يوماً من الايام ، وما املك درهماً واحداً ، فلم ازل افكر واعمل الحيلة الى ان اصبت غزلاً لدايةٍ كانت لهم . فسرقته ثم وجّهت به فبيع لي واشتُري لي بثمنه ما احتجتُ اليه . وجئت الى الداية وقلت لها : افعلي كذا ، واصنعي كذا . قالت : من اين لك ما ارى ؟ قلت : اقترضت دراهم من بعض اهلي . ففعلت ما امرتها به . فلما فرغنا من الاكل وجلسنا للحديث طلبت الداية الغزل فلم تجده ، فعلمت اني صاحبه . وكان في تلك الناحية لصٌ يقال له مقلاص مشهور بالسرقة . فجاءت الى باب البيت الذي كنا فيه ، فدعتني ، فلم اخرج اليها لعلمي انها وقفت على ما صنعت . فلما الحّت وانا لا اخرج قالت : اخرج ، يا مقلاص ! الناس يتحذّرون من مقلاصهم ، وانا مقلاصي معي في البيت ! فزحم معي اخوتي وعمومتي بهذا اللقب ساعة ثم لم اسمع به الا منك الساعة . فعلمت ان امر هذه المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه .»[1]

افتكون هذه الاسطورة من اختراع الرواة ؟ ام تكون صحيحة النسبة الى الراهب ؟ فيكون هذا ، وقد عرف قصد امير المسلمين في النزول هناك ، وتحقق اسمه واسم ابيه وكنيته ولقبه ، رأى ان يخترع هذه الحكاية فينسب الى كتاب قديم أن لا يبني المدينة الا رجل اسمه بعيدٌ البعدَ كلّه عن اسم الخليفة المذكور ، لعله بذلك يصرفه عن البناء في تلك البقعة ، فيبعد المسلمين عن الدير . . . فيكون المنصور ، والحالة هذه ، اشدّ دهاء من الراهب اذ يستفيد من القصة ويخترع اسطورةً اخرى تُتمم اسطورة الراهب ناسباً الى نفسه لقب مقلاص . . .

ومهما يكن من امر الاختراع هذا فقد تمّ بناء المدينة على يد المنصور .

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨١ – ٦٨٢ ؛ وابن الطقطقي : الفخري (طبعة Derenbourg) ، باريس ١٨٩٥ ، ص ٢١٧ – ٢١٨

فأمر اولًا ان يخطّ رسمها بالرمـاد مع ابوابها وبناياتها وسورها. وان يكون تصميمها على شكل دائرة تامة «لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض.»[1] ومؤرخو العرب يفتخرون بهذه الهندسة التدويرية، ويرددون على اثر الخطيب البغدادي: «لا يُعرف في اقطار الدنيا كلها مدينة مدوّرة سواها.»[2] ولعلهم معذورون لكونهم لم يسمعوا بغيرها من المدن على هذا التصميم. اما الحقيقة فهي ان «اقطار الدنيا» عرفت كثيرًا من المدن المدوّرة، بل ان ذاك القُطر نفسه الذي اختاره المنصور عرف تدوير المدن منذ القديم. كما تفيدنا الآثار التاريخية واللغوية، وهي ما سنستند اليه في الجواب عن هذا السؤال:

ايه اخذ المنصور فكرة في الاستدارة؟

لنا في الجواب طريقان كما قدّمنا: طريق تاريخي، وطريق لغوي.

اما التاريخ فيفيدنا عن مدنٍ كثيرة بناها الحثيون والميديّون على تصميم مستدير، حتى ان مثال المدينة الحثية المحصنة يظهر على شكل الاسوار المستديرة الواحد بعد الآخر تحيط بالمركز او النقطة المتوسطة؛ كما افادتنا الحفريات في موقع مدينة زنجرلي عند اقدام الامانوس[3]، وفي موقع قادش في تل النبي مَنْد في سهل حمص[4]، وكذلك في موقع كركميش على الفرات مكان جرابلس. وان الملاحظ المدقق ليجد في تصميم كركميش الشكلَ المستدير في الاصل ثم الميلَ به الى التربيع[5].

واذا انتقلنا الى الميديين، ارباب ميدية او بلاد فارس، نرى شاهدًا واضحًا على استدارة المدن في تأسيس عاصمتهم المدعوّة اكبتان، القائمة مكانها اليوم مدينة همذان. فان هيرودوت المؤرخ يذكر ان ديجوسيس ملك الميديين

---

١) كذا، في ابن العبري: ك.م. ص ٢١١.

٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (طبعة Salmon) ص ١

٣) اطلب تصميم المدينة في E. Pottier, *L'art hittite*, 3e art. [*Syria*, II, 1921, pl. III, fig 41]

٤) اطلب في ذلك *Syria*, III, 1922, p. 89ss

٥) Pierre Lavedan, *Histoire de l'Architecture urbaine*, Paris, 1926, p. 59

« حتّم على ابناء رعيته ان يتركوا منازلهم ، ويبنوا مدينة يقيمون فيها . فبُنيت المدينة على اكمة . وكان يحيط بها سبعة اسوار مستديرة لا يعلو واحدها عن الآخر الا بمقدار المشارف المصبوغة بالوان مختلفة : من ابيض ، واسود ، وارجواني ، وازرق ، واحمر ، وفضي ، وذهبي . وجعل الملك قصره وبيت ماله (او كنوزه) داخل السور الاخير . اما البيوت فكانت بين سائر الاسوار . . . »[1] (انتهى كلام هيرودوت) .

قلنا : اوَ لا يكون احد مهندسي المنصور من الفرس اتى بهذه الفكرة من بلاده ؟ ولا سيما اذا انتبهنا لأوجه الشبه البارزة بين المدينتين ومنها ان « دار السلام » كان لها سوران مستديران ، وان الرعية كانت تسكن بين هذين السورين ، وليس ضمن السور الداخلي الا قصر المنصور ، والجامع ، ودوائر الحكم .

ثم هناك الطريق اللغوي ؛ وقد يؤدي بنا الى نتيجة اقرب من هذه .

عرفنا ان بين القرى والمزارع والديورة التي كانت قائمة مكان بغداد مدينة قديمة اسمها « الكرخ » ، وقلنا ان لفظة « الكرخ » او « الكرك » تعني المدينة المحصنة باللغات الآرامية[2] . على اننا اذا فتّشنا عن اصل المعنى في اللفظة ، فاننا نرى ان الكرخ = كَرْخا ضغطا اسم من فعل كَرَخَ او كَرَكَ ، ضغط ومعناه احدق بالشيء ، واحاط به ، واستدار بجوانبه . وفي كل مشتقاته معنى الإحاطة ، والطواف ، واللف . وبهذه المعاني جميعها استُعملت اللفظة في الاسفار المقدسة[3] . فيكون من ثَمَّ معنى الكرخ المدينة المحصنة وبالتالي المستديرة السور .

---

١) نقله عن تاريخ هيرودوت (I, 98) لايدان في كتابه المقدم ذكره : Lavedan, *op. cit.*, p. 63

٢) ومن هذا الاصل اسماء بعض القرى اللبنانية والسورية ، المدعوّة « بالكرك » .

٣) ومن معاني ضغط المَلَفّ من الكتب ، او المجلّد المغرف ، لان المجلّدات كانت في ما مضى ، قبل عهد الطباعة ، تُلفّ لفّاً . وشبه هذا الاصل اللغوي معروف في لفظة volume الفرنسية المشتقّة من اللاتينية volumen من فعل volvere = لَفَّ . ومن معاني ضغط ايضاً

ولنا شاهد آخر على هذا المعنى في اسم احد الانهر المحيطة بتلك البقعة على شكل يقرب من نصف الدائرة، واسمه، حتى في الآثار العربية جميعها، «نهر كرخايا». ولا يخفى ان كرخايا ܟܪܟܝܐ السريانية معناها «الالتفافي»، او المحيط والمستدير او ما يشبه معنى «التحويطة»

أفلا يكون المنصور رأى استدارة تلك المدينة، او سمع بها، او سأل عن معنى الكرخ، فأفيد، فافتكر بالمدينة المدوّرة؟

دار السلام

وقد استعان على تحقيق فكرته باشهر مهندسي العصر من فرس وآراميين وعرب، منهم الحجاج بن ارطاة، وابو حنيفة النعمان بن ثابت. واستحضر الصنّاع والعمّلة والنجّارين والحدّادين والحفّارين من الشام والموصل وجند خراسان والكوفة وواسط، «وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من امر البناء». [1] حتى بلغوا الالوف. فامر ببدء العمل سنة ٧٦٢ م. ووضع اول لبنة بيده قائلاً: «بسم الله، والحمد لله، والارض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.» ثم تتابع الشغل فكانوا يضربون اللبن ويطبخون الآجرّ ثم يبنون. وقد حفظ لنا ابن الجوزي [2] ونيره شيئاً من المعلومات في هذا الشأن قال: ان ابا حنيفة كان يعدّ اللبن بالقصب... وكانت اللبنة ذراعاً في ذراع، ووُزنت لبنة فكانت مائة وسبعة عشر رطلاً. [3]

على ان هذا العمل لم يغنِ المنصور عن طلب الانقاض ومواد البناء. وكانت المدائن، عاصمة الاكاسرة، قريبةً منه على مسيرة يوم، وفيها القصر

الزنّار، نظرًا لالتفافه واستدارته. وقد حفظت اللغة العامية في بعض مناطق لبنان المتأثرة باللغة السريانية هذا المعنى في اللفظة «الكَرَكَة» التي يسمّون بها الإبريق، او آلة التقطير، لما فيها من استدارة الانابيب والتفافها بعضها حول بعض.

١) الخطيب البغدادي: الكتاب المذكور، ص ١

٢) ابن الجوزي: ك. م. ص ٨

٣) بالرطل البغدادي، وسنقدّر وزنه عند كلامنا عن اسعار الحاجيات، بُعيد هذا.

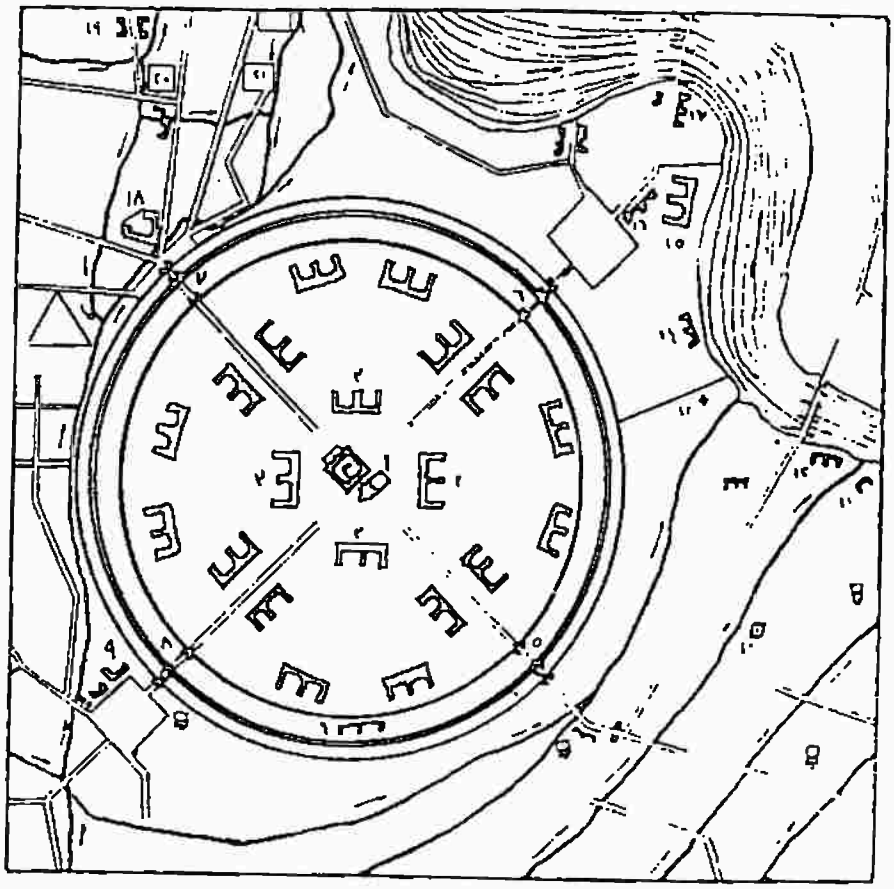

الرسم الاول

المدينة المدوّرة كما بناها المنصور

عن المصدر وصفه لوسترانج ، (Le Strange, *op cit.* map. II.) وقد حوّرنا فيه قليلاً ، فوسعنا قيلا يحيط بين « السورين » . وهذه اسماء المحلات المهمّة :

١ - جامع المنصور
٢ - قصر الذهب ، او باب الذهب ، او القبة الخضراء
٣ - ٣ مراكز الادارات العامّة
٤ - السجن المعروف «بالمطبّق»
٥ - باب البصرة
٦ - باب خراسان
٧ - باب الشام
٨ - باب الكوفة
٩ - ديوان الصدقة وبعض الاصطبلات
١٠ - قبر معروف الكرخي
١١ - دار الجوز
١٢ - باب الشعير
١٣ - الدير العتيق قرب مصبّ الصراة
١٤ - قصر زبيدة
١٥ - قصر الخُلد
١٦ - اصطبلات الخليفة
١٧ - مركز شرطة الجسر
١٨ - سجن باب الشام
١٩ - دكّان الابناء
٢٠ - مربعة الفرس
٢١ - مربعة شبيب

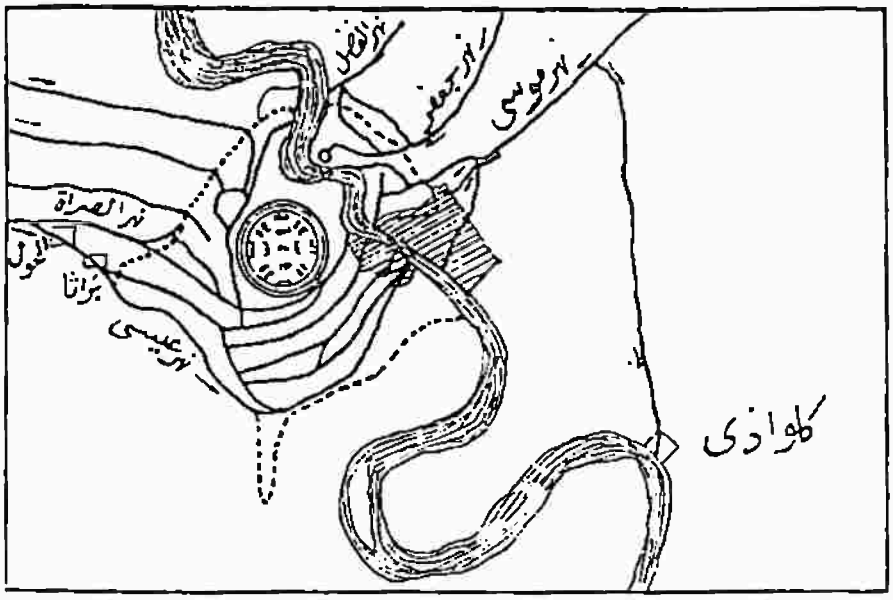

الرسم الثاني

مدينة المنصور ومركزها في بغداد الكبرى بعد عهد المهدي

المخطوط السوداء تمثل الانهر . والخط المنقط حدود المدينة الكبرى . وقد ظهرت في الجانب الشرقي حاصة بغداد الحالية مشيراً اليها بالخطوط المتوازية بالعراف .

(عن وسترانج في كتابه المذكور : Map I — والطالب قد يجدون في ما تعلّق باتجاه الانهر خاصة ، في الصفحة ٨٦ من هذا الجزء من المشرق)

الابيض المشهور ، وايوان كسرى . فاستشار خالد بن برمك في نقض تلك البنايات ونقل انقاضها الى بغداد . فقال خالد : لا ارى ذلك . فلم يسمع له المنصور وقال : أبيت الا الميل الى اصحابك الاعاجم . ثم امر بنقض القصر الابيض . فهُدم قسم منه . وأُخذ بنقل انقاضه الى موقع بغداد . ولكن سرعان ما انتبه المنصور ، وهو المالي المدقق المقتصد[1] ، لنتيجة هذا العمل ، فرأى ان نفقات النقض ونقل الموادّ الى بغداد تزيد على نفقات عمل اللبن ، فترك النقض .

وامر ان يجعل عرض السور الخارجي منّ اسفله خمسين ذراعاً ومن اعلاه عشرين ذراعاً . فكان في كل سافٍ مائة الف لبنة واثنتان وستون الف لبنة ، على ما نُقل عن رباح البنّاء ، وكان ممن يتولى البناء . هذا في اسفل السور . ولما وصلوا الى الثلث لطّفوا الساكة فصيّروا الساف مائة الف لبنة وخمسين الف لبنة . فلما جاوزوا الثلثين لطّفوا الساكة ايضاً ، فجعلوا في الساف مائة واربعين الفاً[2] . ثم بنى سوراً ثانياً داخلياً . واحاط المدينة بخندق . وجعل لها اربعة ابواب : باب خُراسان الى الشرق الشمالي ، وباب الكوفة ناحية الحجاز ، وباب الشام ناحية المغرب ، وباب البصرة ناحية الاهواز وواسط واليمامة والبحرين (اطلب التصميم في الرسم ١) . ولم يضع عليها ابواباً من عمل صنّاعه ، انما نقل ابوابها من الخارج ، فوضع على باب خراسان باباً جيء به من الشام « من عمل الفراعنة »[3] ، وعلى باب البصرة باباً جيء به من واسط وكان الحجاج قد اخذه من مدينة اسمها زَنْدَوَرْد « يزعمون انها من بناء سليمان بن داود »[4] ، واقام على باب الكوفة باباً جاء به من الكوفة من عمل خالد القسري ، وعمل هو

---

١) في كتب المؤرخين كثير من الحوادث تدلّ على اقتصاد المنصور بل على بخله ، وعلى تنبّهه لطرق جمع المال . منها ما ذكره ابن العبري مما يصلح ان يكون مثالاً لموزّعي الضرائب قال : « امر المنصور بعدّ دور اهل الكوفة ، وقسمة خمسة دراهم على كل دار . فلما عرف عددهم جباهم اربعين درهماً اربعين درهماً . » (ابن العبري : ك . م . ٢١٣) .

٢) ابن الجوزي : ك . م . ٩-١٠

٣) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٤

٤) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٤ ؛ وابن الجوزي : ك . م . ١٠ ؛ والخطيب ك . م . ص ١٢

باباً لباب الشام ، « وهو اضخمها »[1] وكلها من الحديد كل باب منها فردان[2] . وجعل على الابواب القبب والابراج ، وفيها الحرّاس . وكان على رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح .[3]

اما مساحة هذه المدينة فيمكننا معرفتها بما يُذكر من انه كان بين الباب والآخر مسافة ميل[4] . والميل يعادل ٤,٠٠٠ ذراع سوداء او مأمونية ، وهذه تقرب من نصف متر . فتكون المدينة صغيرة بالنسبة الى ما ستصير اليه بغداد الكبرى بعد المنصور ، كما سنرى .

وبنى المنصور داخل السور الثاني ، وسط المدينة ، جامعاً ، والى جنبه دار الخلافة ، المعروفة « بقصر الذهب » ، او « بالقبة الخضراء » لانه بنى فوق الايوان قبةً عالية ذات لون اخضر بلغ علوّها ثمانين ذراعاً ، وعلى رأسها صنمٌ على صورة فارس في يده رمح[5] .

هذا ما يتفق المؤرّخون على ذكره دون ان يشكّ احدٌ منهم في صحته . واذا احتجوا فانما يحتجون على الخرافة العالقة بذلك الصنم ، لا على وجود الصنم نفسه . اما كيف امكن خليفة المسلمين ، وهم المشهورون بالامتناع عن تمثيل الكائنات الحيّة بالرسم والتصوير فضلاً عن النحت والتجسيم ، ان يُقرّ هذا العمل ويسمح بوضع تمثال على قبة قصره ، فهو ما يحار فيه المطالع لاول وهلة . على ان الامر لا يظهر مستحيلاً ، اذا ما عرفنا ان بغض الاسلام الذي لمظاهر تصوير الكائنات الحية ، واهتمام الائمة بتحريم هذا التصوير لم يتقدّما العصر العباسي . بل ان ذاك المجرى التحريمي قد يكون من نتائج تأثير العقائد التلمودية في الحديث الاسلامي ، ولم يسبق هذا التأثير العصر الذي يهمنا امره[6] . فضلاً عن

---

١) الخطيب : ك . م . ص ١٤ ؛ ياقوت ك . م . ١ : ٦٨٤

٢) الخطيب : ك . م . ص ١٢

٣) ابن الجوزي : ك . م . ص ٩ ؛ والخطيب ك . م . ص ٨

٤) الخطيب : ك . م . ص ١١ ؛ ابن الجوزي : ك . م . ص ١١ ؛ ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٣

٥) اطلب في ذلك الملاحظات الدقيقة التي اوردها حضرة الاب لامنس في بحثه النفيس :
P. H. Lammens, *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés*, dans *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930. p. 351-389

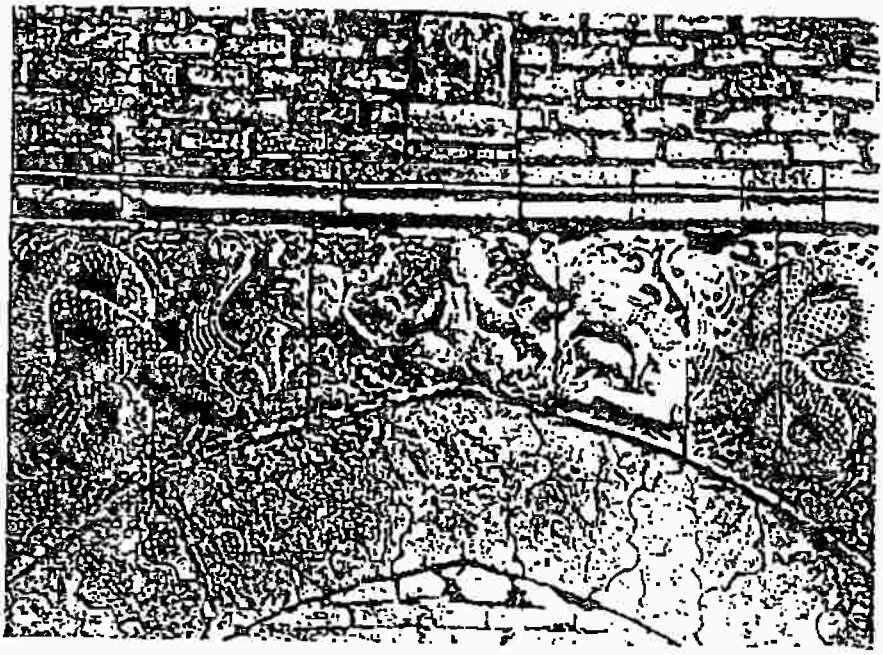

الرسم ٣ : باب الطلسم في بغداد

بني في السنة ٦١٨هـ (١٢٢١) على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠-١٢٢٥) والرسم يمثل رجلا جالساً القرفصاء بين تنينين مُجنَّحين مُذَنَّبين ، وقد فغرا فيهما واخرجا لسانيهما ، فقبض عليهما الرجل . ولا يخفى الشبه بين هذا الشخص والمعروف من تماثيل بوذا مما يدل على شدة التأثير المغولي في هذا الأثر . ويرى بعض العلماء ان الشخص المذكور يمثل الخليفة الناصر نفسه . ولا يزال الباب قائماً في بغداد . الا ان مدخله سُدَّ منذ مرور السلطان مراد الرابع (١٦٣٨) وقد اخذنا الرسم عن Strzygowski *Asiens bildende Kunst*, Augsburg, 1930. fig. 282

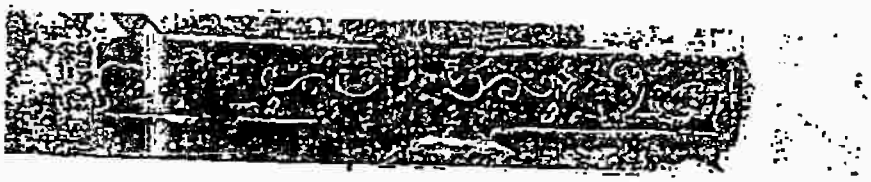

الرسم ٤ : رسم تنينين على احد ابواب حمص

(عن صورة حضرة الاب ربه موترد اليسوعي لم يسبق نشرها)

ان هناك حتى في العصر العباسي ، بل في ما بعد العصر العباسي ، مظاهر عدة لتمثيل الاشخاص والحيوانات ، منها في بغداد نفسها ، ما مُثّل على رؤوس قبب الابواب في « دار السلام » ، كما تقدّم في الصفحة السابقة ؛ وما مُثّل حول « بركة الشجرة » في دار المقتدر كما سنرى[1] . وخصوصاً ما مُثّل في اعلى الباب المعروف «بباب الطلسم» المبني سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م) على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠–١٢٢٥) كما يظهر من الكتابة الظاهرة فوق الاثر[2] . وقد نشرنا صورة هذا الاثر ، عن ستزيغوسكي[3] ،لاهميته في تاريخ الفنّ الاسلامي ، وذلك انه يمثل ، في رأي علماء الآثار ، الخليفة الناصر نفسه ، وعلى رأسه تاج محاطٌ بهالة ، وهو جالس القرفصاء بين تنينين مجنحين مذنّبين ، وقد فغرا فيهما واخرجا لسانيهما فقبض عليهما الخليفة[4] .

واذاً فان يكن من شكٍّ في صحة رواية الصنم ، فلا يكون هذا الشكّ مستنداً الى المبادئ الدينية .

اما الخرافة التي حاكتها مخيّلة العامة حول هذا الصنم ، وتجاوزت الى المؤرخين ، فخلاصتها ان الخليفة كان ، اذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها ، علم ان احد الخوارج يظهر من تلك الجهة . فلا يطول الوقت حتى ترد عليه الاخبار بان خارجياً قد نجم من تلك الجهة[5] . وقد

١) اطلب الصفحة ٩٨ من هذا البحث .

٢) اطلبها مع ترجمتها الى الفرنسوية في Massignon, *op. cit.*, p. 47-48

٣) Strzygowski, *Asiens bildende Kunst*, Augsburg, 1930, fig. 282

٤) اطلب وصفاً مختصراً لهذا الاثر في Strzygowski, *op. cit.*, p. 645 ووصفاً مطوّلاً في Van Berchem, *Amida*, Heidelberg. 1910, p. 82 ss. et fig 31, p. 83 وايضاً في Hartmann et Sarre, *OLZ*, 1905, p. 277 ss., 541 ss. ; 1906 p. 173 ss. هذا وان تمثيل التنّينين المتقابلَين معروف على كثير من الابواب المشهورة المبنيّة في القرن الثالث عشر ، من ذلك واجهة « باب حلب » في ديار بكر ، وباب قلعة حلب ، وباب جامع « چفته منار » في ارضروم . (اطلب Van Berchem, *op. cit.*, p. 83 et 84 و Strzygowski, *op. cit.*, p. 292) . ومن ذلك ما وجده حضرة الاب رينه موتر على احد ابواب حمص فتفضّل علينا بصورته ، فنشرناها ، لاول مرّة ، تحت صورة « باب الطلسم » .

٥) ابن الجوزي : ك . م . ١١–١٢ ؛ الخطيب : ك . م . ١١

نقل ياقوت هذه الخرافة وفندها بقوله :

« هو من المستحيل والكذب الفاحش . وانما يُحكى مثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بلياس التي اوهم الاغمارَ صحتَها تطاولُ الازمان والتخيُّلُ ان المتقدمين ما كانوا بني آدم . فاما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الخرافات . فان من المعلوم ان الحيوان الناطق مكلّف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئاً مما يُنسب الى هذا الجماد ولو كان نبياً مُرسلاً . وايضاً لو كان كلما توجهت الى جهة خرج منها خارجي لوجب ان لا يزال خارجي يخرج في كل وقت لانها لا بد ان تتوجه الى وجه من الوجوه . والله اعلم . »[1]

ويتفق من سبق ذكرهم من المؤرخين على القول ان تلك القبة الخضراء سقطت «يوم الثلثاء لسبع خلون من جمادى الاخرى سنة تسع وعشرين ومئتين» اي في ٩ اذار ٩٤١ بعد ان مرّ على بنائها نحو مائة وثمانين سنة .

ولم يكد المنصور ينتهي بناء المدينة في السنة ٧٦٦ حتى نقل اليها دوائره المتعدّدة فاقام ارباباً في البنايات الداخلية ، اي ضمن السور الداخلي . وجعل الرعية بين السورين . ولم يكن يؤذن لهم في تجاوز السور الا نهار الجمعة للصلاة في جامع القصر . فكانت مدينته مثالاً للمدن المحصّنة في القرون الوسطى . وقد دعاها « دار السلام » وتُسمى ايضاً « مدينة السلام » . والمؤرخي العرب اختلاف في اشتقاق هذا الاسم ، وبعضهم ينسبون المدينة الى نهر دجلة المدعو « نهر السلام » . على اننا نرى ان المنصور دعاها تفاؤلاً بما ورد في القرآن عن الجنة اذ يدعوها « دار السلام » في قوله : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون . »[2] « والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم . »[3] ولا يخفى ان بعض المسلمين كانوا يجعلون الفردوس الارضي في اربعة مواضع منها بغداد ، والثلاثة الاخر هي غوطة دمشق ، والابلة ، وشعب بوّان في بلاد فارس .

ولكن اسم دار السلام لم ينتشر بين الناس ، على ما يظهر ، ولم يكد

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٣
٢) القرآن ٦ [الانعام] ١٢٧
٣) القرآن ١٠ [يونس] ٢٦

يتجاوز الّا قليلًا الوثائق الرسمية والنقود . اما العامة فانها ظلت تدعو المدينة بغداد وبغداذ وبغدان ، والمؤرخون والشعراء كذلك . يدل على الامر الشعر العباسي بجمله وكتب التاريخ كلها ، وما نُقل عن موسى بن عبد الحميد النّاشري قال : كنت جالساً عند عبد العزيز بن ابي روّاد فاتاه رجل فقال له : من اين انت ؟ فقال له : من بغداد . فقال : لا تقُل بغداد ، فان بغ صنم وداد اعطى . ولكن قل مدينة السلام . فان الله هو السلام والمدن كلها له[1] .

ودعيت بغداد ايضاً المنصورية والزوراء . اما المنصورية فنسبة الى المنصور . واما « الزوراء » فاسم يراه ستريك محرّفاً عن الفارسية[2] . ويراه مؤرخو العرب مأخوذاً عن ازورار ابوابها الداخلية ، او عن ازورار القبلة في الجامع الكبير على الضفة الشرقية ، او عن ازورار نهر دجلة فيها[3] .

نفقات البناء

لمؤلفي العرب تقديرات متنوعة لما تكلفه المنصور في بناء مدينته ، قد لا يخلو اكثرها من المجازفة . ولعل اقربها الى المعقول ما نقله ياقوت من ان هذه النفقات بلغت ثمانية عشر الف الف دينار[4] اي ١٨ مليوناً من الدنانير . ويهمنا ان نعرف قيمة الدينار وما يعادل في عصرنا كي يمكننا ان نتصوّر مبلغ هذه النفقات ، فنحكم فيها .

كان الدينار يزن شرعاً ٤,٢٥ غرامات[5] ، وقيل بل كان يزن ٤,٤ الى ٤,٧ غرامات من الذهب بعيار ٧٦٧ من الالف على الاقل . وهو ما يعادل في عصرنا ١١,٥٠ فرنكاً ذهبياً او ٧٢ فرنكاً ورقاً على التقريب[6] ، اي ما يقرب من ٣٦٠

---

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٧٨

٢) Streck, *loc. cit.*, p. 375

٣) راجع في ذلك : Le Strange, *op. cit.*, p. 11 ; Salmon, *op. cit.*, p. 94, note 2 ; Massignon, *op. cit.*, p. 98

٤) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٢

٥) T. V. Zambaur, *Dînâr*, [*Encyclop. de l'Islam*, I, 1002]

٦) Massignon, *L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et*

غرشاً لبنانياً سورياً . فاذا اعتبرنا هذه المعادلة بلغت نفقات البناء ما يقرب من ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون من الليرات الفرنسوية ذهباً .

وهو معقول لان اليد العاملة لم تكن، اذ ذاك ، من الرخص بحيث نتصوره اليوم ، وان كانت الحاجيات تبدو رخيصةً بالنسبة الى عصرنا . ولنا في روايات المؤرخين ادلة كافية على الامرين .

فقد ذكر الخطيب ان الاستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط الى خمس حبات[1] ، اي ما يدور حول ١٨ الى ٣٠ غرشاً لبنانياً سورياً ، والروزجاري اي البنّاء ، يعمل بحبتين الى ثلاث حبات او ما يعادل نصف اجرة الاستاذ تقريباً .

وذكر المصدر نفسه[1] ، في ما خصّ اسعار الحاجيات ، ان الكبش كان يباع بدرهم ، اي ما يقرب من ٣٦ غرشاً لبنانياً سورياً[2] ، والحمل[3] باربعة دوانيق[4] اي بثلثي الدرهم = ٢٤ غ . ل . س . والتمر ستين رطلاً[5] بدرهم ،

---

l'essor des banques juives. [Extr. du *Bullet. d'études orientales* de l'Inst. franc. de Damas, t. I] p 6, note 4

١) الخطيب: ك . م . ص ٦ – كانت الحبة تعادل ثُلُث القيراط . اما القيراط فهو في الاصل ١/٢٠ من الدينار ، الا ان قيمته كانت تعلو وتهبط فتارةً كان يعادل ١/٣ درهم وطوراً ١/١٢ من الدرهم . اطلب Sauvaire, *Matériaux pour servir à l'histoire de la métrologie et de la numismatique arabes*, I, p. 102

٢) نعتبر ان الدرهم كان يعادل ، في اوائل العهد العباسي ، اي في الزمن الذي جعلنا اجره ، عشر الدينار . وذلك قبل ان تسقط قيمة الفضة فيبلغ الدينار عشرين الى اثنين وعشرين درهماً ، على عهد الرشيد . اطلب Massignon, *op. cit.*, p. 7, note 1 . على ان زمبور يرى ان الدرهم ، حتى في اوائل الاسلام ، كان يعادل جزءاً من عشرين من الدينار . ويعتقد سلمون ، جارياً على اثر سوفير، ان الدينار كان يعادل في زمن المنصور ١٤ درهماً : T. V. Zambaur. *Dirhem* [*Encyclop. de l'Islam*, I, 1005-1006] Salmon. *op. cit.*, p. 82 : Sauvaire, *op. cit.*, supplément p. 203

٣) وفي ياقوت : الجمل ، وهو خطأ مطبعي . ٤) الدانق = سدس الدرهم .

٥) اي الرطل البغدادي ووزنه ٣٩٧,٢٦ غراماً . اطلب Sauvaire, *op. cit.*, II, p. 181 ويرى زمبور ان رطل الوزن ، وهو الليبرة ، كان يعادل ٣٢٧,٤٥ غراماً . اطلب Zambaur, *Kirāṭ* [*Encyclop. de l'Islam*, II, 1083]

والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية ارطال بدرهم . وزاد في خبر رفعه الى ابي نعيم الفضل بن دكين قال : كان يُنادى على لحم البقر في جبّانة كندة تسعين رطلاً بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم . . .

كانت اسواق المدينة في اول الامر بين السورين حتى حصل ما غيّر رأي المنصور في ذلك[1] . فأمر سنة ٧٧٣ باخراج الاسواق الى ما وراء السور الخارجي وجعلها في محلة الكرخ ، جنوبي دار السلام ، على تصميم خطّه بيده ، وحققه على نفقته ، ورتّب كل صنف منها في موضعه ، وقال : « اجعلوا سوق القصابين في آخر الاسواق ، فانهم سفهاء وفي ايديهم الحديد القاطع . » ولعلّ لهذا القول صلة بحكاية يوردها المؤرخون وخلاصتها ان المنصور ، قبل اخراجه الاسواق ، بينما كان يستقبل وفد ملك الروم ، سمع صرخة قوية تحت القصر ، ثم صرخة ثانية وثالثة ، فامر ان يُنظر في الامر . فقيل له : « يا امير المؤمنين ، بقرة تُربت لتذبح فغلبت الجازر وخرجت تدور في الاسواق . »[2] ولعلّ الارجح في سبب نقل الاسواق والعامة الى الكرخ ما ذكره الخطيب من ان المنصور كان قد « ولّى الحسبة يحيى بن زكريّا ، فاستغوى العامة وزيّن لهم الجموع فقتله ابو جعفر بباب الذهب — اي باب قصر المنصور — وحوّل اسواق المدينة الى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحوّل . »[3]

ثم امر المنصور بتوسيع الطرق في مدينة السلام « وجعلها على اربعين ذراعاً ، وامر بهدم ما شخص من الدور عن ذلك القدر . »

ولما كان لا بد من المياه ، امر فمدّت الى دار السلام قناة من نهر دُجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، وبُرّتا « في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والآجرّ من اعلاها . فكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والارباض وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت . »[4]

---

١) راجع ابن الجوزي : ك.م. ص ١٢ — ١٤ ؛ والخطيب : ك.م. ص ١٨ — ١٩
٢) الخطيب : ك.م. ص ١٨ ٣) الخطيب : ك.م. ص ٢٠
٤) الخطيب : ك.م. ص ١٩

وكذلك زاد الافنيـة او « الانهر » التي كانت تصل الى محلـة الكرخ وغيرها من ضواحي المدينة. وقد ذكر الخطيب خمسة منها مستحدثة، فضلاً عن القديمـة السابقة عهد المنصور كنهر كرخايا ونهر عيسى وغيرهما، قال: « وجرّ لاهل الكرخ وما اتصل بها نهراً يقال له نهر الدجاج وانما سُمي بذلـك لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده؛ ونهراً يقال له نهر القلانين حدّثنا من ادركه جارياً يلقي في دجلة تحت الفرضة؛ ونهراً يسمى نهر طابق؛ ونهراً يقال لـه نهر البزّازين، فسمعت من يذكر انه توضأ منه؛ ونهراً في مسجد الانبـاريين رأيته لا ماء فيه ». ويزيد الخطيب عن هذه الانهر في زمـانه، اي في القرن الحـادي عشر[1]: « تعطلت هذه الانهار ودرس اكثرها حتى لا يوجد لـه اثر. »[2] وقد اجتهد لوسترانج في تمثيلها مستنـدًا الى الآثار القديمـة فخطّط التصميم الذي نشرناه في الرسم ٢. الا ان ماسينيون، بعد ان اقام منقّباً في بغـداد وجوارها مدة خمسة اشهر من اوائل السنة ١٩٠٨، يرى ان اتجاه الانهر على شكل نصف دائرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي في الكرخ، كما يظهر في خارطة لوسترانج، لا يوافق مستوى الارض في بغداد. بل ان ماسينيون يميل الى موافقة ستريك في تخطيط نهر عيسى على خط مستقيم حتى مصبه في دجلة[3].

اما اسواق الكرخ فكانت عديدة اشهرها، في ما يهمّنا، ما يكثر ذكره في كتب الادب كسوق الصاغة، والقيسارية اي سوق الحرائر والانسجة النفيسة، وسوق الثلاثاء، وسوق الريحانيين، وسوق العطارين[4]، وسوق الصفارين، وسوق الصيارفة، وسوق الفرّائين، وخصوصاً دار البقل، التي كانت تقابل ما نعرفـه اليوم « باسواق الخضرة »، ودار البطيخ التي لم تكن تقتصر على بيع البطيخ وحده بل تباع فيها الفواكه بجملتها[5]. يدل على ذلك ان الناس سموا « دار

---

١) عاش ابو بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي من ٣٩٢ الى ٤٦٣هـ. (١٠٠٢–١٠٧١)

٢) الخطيب: ك. م. ص ١٩–٢٠

٣) Massignon, *Mission en Mésopotamie...*, II, p. 119

٤) ذكرها ماسينيون كلها مرجّحاً انها لم تزل في محلها القديم Massignon, *Mission...*, II, 90-93

٥) ابن الطقطقي: الكتاب المذكور، ص ٢٢٦؛ وياقوت: ك. م. ٢: ٥١٧

البطيخ » قصيدة ابن الرومي النونية الطويلة التي مطلعها :

اجنت لك الوصل اغصانٌ وكثبانُ فيهنَّ نرمان تفاحٌ ورمّان

والتي يكثر فيها من ذكر الفواكه. ويدل على ذلك ايضاً قول ابن لنكك في هجو ابي الهيذام كلاب بن حمزة :

انت ابن كل البرايا ، لكن اقتصروا على اسم حمزة ، وصفاً غير تشبيهِ
كدارَ بطيخَ تموي كل فاكهةٍ وما اسمها الدهرَ الا دارُ بطيخِ[1]

وقد كانت هذه الدار اولًا في مدينة السلام في درب الاساكفة ، ودرب الزيت ، ودرب العاج، ثم نقلت الى الكرخ في ايام المهدي، على قول الخطيب[2]. مما يدل على ان الاسواق لم تُنقل كلها دفعةً واحدة الى الكرخ ، وهو معقول خصوصاً اذا انتبهنا الى ان المنصور لم يعش طويلًا بعد مباشرته بناء الكرخ ، فقد توفي في السنة ٧٧٥.

وبعد ان اهتم المنصور ببناء الاسواق في الكرخ باشر بناء قصر له خارج سور دار السلام مما يلي باب خراسان في الشرق الشمالي ، على شاطئ دجلة في محل دير نسطوري قديم . وقد سماه « الخلد » « تشبيهاً بجنة الخلد لما حوى من العجائب . »[3]

هذا ما يهمنا امره من الابنية في الجانب الغربي من بغداد . ومما يجدر بالذكر ان المنصور لم يتجاوز قط في ابنيته الضفة الغربية ، راميًا الى ان يبقى نهر دجلة بينه وبين الفرس.

عسكر المهدي او الرصافة

اما الجانب الشرقي فمن اشهر ابنيته واقدمها الرصافة او عسكر المهدي كما دُعيت اولًا . وذلك ان المهدي قدم من الري في السنة ٧٧٠ في جيش اكثره من الفرس ، فرأى المنصور ان يبقيهم مما وراء النهر . فارسل الى ابنه ان

١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، دمشق ١٣٠٤ هـ. (١٨٨٦) ٢ : ١٢٢
٢) الخطيب : ك.م. ص ٢٢ – واطلب في « دور البطيخ ببغداد ودمشق في عهد العباسيين » بحثاً لحبيب زيات في المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٧٦١-٧٦٥)
٣) ابن الجوزي : ك.م. ص ١٢

يعسكر هناك . وبدأ ببناء المدينة الجديدة مع قصر وجامع ، واجرى اليها الماء ، كما فعل في دار السلام والكرخ . ثم اتمها المهدي بعد وفاة والده وبنى سورها ومسجدها وحفر خندقها سنة ٧٧٥ ، وظل مقيماً فيها . وكانت دار السلام — بعد ان هجرها المنصور منتقلاً الى قصر الخلد ، ثم لم ينزلها المهدي مكتفياً بقصره في الرصافة ، ثم اعرض عنها الرشيد مقيماً في الخلد — قد اخذت بالانحطاط والخراب شيئاً فشيئاً بسرعة غريبة ، مما يدلّ على انه لم يكن يسكنها الا ارباب الدوائر من الموظفين .

وكان يصل بين الضفتين ثلاثة جسور ، على قول ابن الجوزي[1] ، عقدها المنصور ، واحدٌ منها للنساء خاصة ، وواحد عند باب الشعير . وكلها خشبية على السفن المتصلة احداها بالاخرى . ثم زادت على عهد الرشيد فصارت خمسة وكان الجسران الجديدان في ناحية الشماسية ، حيث دور البرامكة . ثم تعطل اثنان في الثورة على الامين فبقي ثلاثة . ثم تعطل اثنان آخران فلم يبقَ في زمان المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) الا جسر واحد عند نهر عيسى . وقد وصف ماسينيون ، في بعثته الى ما بين النهرين ، السنة ١٩٠٨ ، ثلاثة جسور : اولها في الشمال بين الكاظمين والاعظمية ، وهو خارج عن مدينة بغداد الحالية ، وثانيها الجسر المتوسط في الكرخ ، وهو المقصود في اقوال المؤرخين والكتاب اذا ما قالوا « الجسر » ، على الاطلاق ، وثالثها في الجنوب في ناحية قراده او گوار ، وكلها خشبية على السفن[2] . وفي المدينة اليوم جسران احدهما مجدّد[3] . هذا عدا الجسر الشمالي بين الكاظمين والاعظمية او المعظم .

ولم يكن قصد المنصور ، على ما يظهر ، ان يبني مدينةً ذات اهمية عالمية ، بل قد تكون غايته الاولى ان يقيم معسكراً لجنوده من الخراسانيين فيبعدهم عن الكوفة . ولهذا نراه يوزّع كل ما اتصل بمدينته من الاراضي بين انسبائه ورجاله وموالية . وكذلك فعل عند بناء الرصافة فاقطع رجاله كل الاراضي

١) ابن الجوزي : ك . م . ص ٣٠

٢) Massignon, *Mission...*, II, 50

٣) *Les guides bleus*, p. 479

القائمة حول البناء . وتبعه على ذلك ابنه المهدي . وقد ترك لنا اليعقوبي لائحة بهذه الاقطاعات ترجمها سلمون الى الفرنسوية[1]

بغداد بعد المنصور

ثم تتابع البناء على الضفتين في زمن المهدي والهادي والرشيد . فقام قصر زبيدة ، امرأة الرشيد ، قرب قصر الخلد ؛ واتسع الكرخ باسواقه المتعددة حتى بلغ نهر عيسى فاصبح النهر المذكور حدًّا جنوبيًا للمدينة بينما كان باب قطربُل يحدها شمالًا ، واقعًا في حيّ الحربية العامر وبقربه اقطاع السيدة زبيدة زوجة الرشيد . وفي الغرب كانت المدينة تتصل بالمحوّل . اما في الشرق فكانت تحدها دجلة . وقامت في الضفة الشرقية قصور البرامكة في حي الشماسية ، واشهرها قصر جعفر تجاه الخلد ؛ تفصل بينهما دجلة . وجذب البرامكة كثيرًا من القوم ، كبارًا وصغارًا ، الى المعيشة في جوارهم فتتابعت البنايات في الضفة الشرقية من الشماسية الى دار الروم ، الى المخرّم ؛ حتى اصبحت الرصافة في اوائل عهد الرشيد تضارع المدينة الغربية سعةً وازدهارًا . وكان لها من الشمال ثلاثة ابواب شهيرة : باب الشماسية ، وباب البَرْدان ، وباب خراسان[2] . ومن مشاهير سكان المدينة الشرقية الفضل بن الربيع ، وكان مجاورًا للفضل بن يحيى في الشماسية ، كما يُستخلص من احدى روايات الاغاني[3] .

واخذ البرامكة يبالغون في مظاهر الترف متأثرين بتلك الحضارة الفارسية المتأنقة التي ادخلوها دار الخلافة العباسية وصبغوا بها مجالي الدولة الجديدة جميعها فباهوا بتعلية القصور ، ورفع الشرفات والقبب ، وتضخيم الابواب ، والاكثار من الحجاب ، والمنافسة في الرياش الفاخر والمقتنيات الثمينة من جماد وحيوان . ولم يكن من اللائق ان يقلّ الخليفة عنهم بذخًا ، بل لم يكن من

---

١) Salmon, *op. cit.*, p. 70-73

٢) يجب التمييز بينه وبين الباب القديم في مدينة المنصور المدوّرة المدعو ايضًا باب خُراسان .

٣) ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني ، بولاق ١٢٨٥ (١٨٦٨) ، ٥ : ٧

اللائق ان يساويهم ، فبزّهم في كل شيء . وجرى على اثرهم كبار القوم . ووافق ذلك ازدهارٌ في التجارة والصناعة ، وتوفّقٌ في الغزوات ، فحياة رخاء وسعة ومال كثير يتدفق الى بغداد ، والى رجال الدولة منها خاصة ، من جميع انحاء تلك الامبراطورية الواسعة . حتى اصبحت بغداد في مجالي مدنيّتها ورخائها وترفها وملاهيها وحركتها المتواصلة اعظم مدينة في العالم الاسلامي ، وقد لا نكون مبالغين اذا زدنا : بل اعظم مدينة في العالم اذ ذاك ؛ وهو ما سنشير اليه اذ نعرض لاحصاء سكان بغداد ، في آخر هذا الدرس ، وما ستبسّط فيه في بحث مقبل نخصّه بذكر الشعوب المختلفة التي كانت تتعايش في هذه المدينة العظيمة . انما تكتفي الآن بالاشارة الى شيء من هذه المظاهر المدنية والترفية مما افاض به الشعراء . فمن ذلك قول ابي صفوان الاسدي ، مشيرًا الى تلك الصروح الشامخة :

واضحت ببغدان في منزلٍ له شرفاتٌ دونَ السما
وجيشٌ ، ورابطةٌ حولَه غلاظ الرقاب كأُسد الشرى
بايديهم خدَكات الصفال سُريجيّةٌ يختلينَ الطُلى (١

وقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يصف طيب الحياة في بغداد وما في دجلتها من السفن الشامخة :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ، عن نفسها في كلّ ما حينِ ،
ما بين قَمْرَ بُلٍ فالكرخ نرجسةٌ تندى ، ومنك خيريّ ونسرينِ ،
تحيا النفوسُ بريّاها اذا نفحت وحرّكت بين اوراق الرياحينِ .
سقيًا لتلك القصور الشامخات ، وما تحفي من البشر الأنسية العينِ !
تستنُّ دجلةُ فيما بينها ، فترى دهم السفين تعالى كالبراذينِ ،
مناظرٌ ذات ابراب مفتّحة أنيقة بزخارفٍ وتزيينِ ،
فيها القصور التي غوري باجنحةٍ باثرابن الى القوم المزورينِ ،
من كل حرّاقةٍ يعلو فنارتها قصرٌ من الساج عالٍ ذو اساطينِ (٢

وفي وصف الحراقات في دجلة بيتان لابي نواس قالهما عندما امر الامين ان يُعمل له ، في سبيل لهوه ومسرّته ، خمس حرّاقات على صور الاسد والفيل

(١) التالي : الامالي (طبعة دار الكتب المصرية) القاهرة ١٩٢٦ ، ٢ : ٢٢٧
(٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٦ — ٦٨٧

والعقاب والحية والفرس . فعُملت وسُيّرت في دجلة ، وركب الامين في حرّاقة الاسد . فقال ابو نوّاس :

عجب الناسُ ، اذ رأوك على صو رة ليثٍ تمرُّ مرَّ السحابِ .
سبّحوا ، اذ رأوك سرت عليه ، كيف لو ابصروك فوق العُقابِ!(١)

نكبات بغداد

على ان هذا الازدهار العجيب توقف فجأة بسبب تلك الفتنة الهائلة التي حدثت بين الامين والمأمون ، بل بين العرب والفرس ، فقاست بغداد حصارها الاول سنة ٨١٢ ، مدة اربعة عشر شهراً ، فكان شديد الوطأة على الجانبين . وكان المأمون قد سيّر لحصار اخيه جيشاً انقسم قسمين : قسماً حاصر الجانب الشرقي بقيادة هرثمة بن أعيُن ، فعسكر قرب باب خُراسان المذكور آنفاً ، وقسماً حاصر الجانب الغربي بقيادة طاهر بن الحسين فاحتلّ الابواب الغربية واخذ يتقدم شيئاً فشيئاً . اما الامين فالتجأ الى المدينة المدوّرة وتحصّن فيها . حتى اذا يئس من الظفر خرج ليلاً من باب خراسان وركب سفينة قاصداً معسكر هرثمة على الجانب الشرقي ، فعُرف ، فأُمسك ، وقتل .

فكان من نتائج هذا الحصار ان نُكبت بغداد نكبة عظيمة فخربت احياء برمّتها ولاسيما في الرصافة والشماسية ، وكانت قصور البرامكة في هذا الحي قد انتقلت ، بعد ايقاع الرشيد بهم سنة ٨٠٣ ، الى الخلافة ، وقصر جعفر الى المأمون خاصة . ومما زاد المصيبة على بغداد ان الرعاع اعملوا يد النهب والتخريب والحريق في المدينة ، اثناء حرب الاخوين ، وبعد مقتل الامين . فاحترقت دور الحكومة وقصور الامين الخاصة .

ولم يتمكن المأمون من ترميم المدينة حالاً بعد انتصاره ، لانه ظل في خراسان ، ولم يدخل بغداد الا بعد مقتل اخيه بخمس سنوات .

وكان ، اثناء ذلك ، قد اعلن سنة ٨١٧ انه بايع بولاية العهد امام العلويين ، علي الرضا ابن موسى الكاظم . فتقبّم عليه العباسيون في بغداد وخلعوه وبايعوا

(١) ابن العبري : ك . م . ص ٢٣٢

عمه ابراهيم بن المهدي المشهور بالغناء ، ولقبوه « المبارك » . الا انه لم يكن مباركاً في خلافته القصيرة . وهو لم يهتمّ في حياته الا بالشرب وضرب العود والغناء ، فاين منه ضبط الاحكام ؟

وكان افراد الجيش وغوغاء العامة قد اعتادوا النهب والتخريب فلم يغيّروا عادتهم ، فظلّت الفوضى سائدة في المدينة . وليس ما يشير الى ان اهل بغداد اهتموا الاهتمام الكافي بهذا الخليفة الجديد . بل قد لا نبعد عن الصواب اذا قلنا انهم نادوا به غيظاً للمأمون ، ورغبةً في الشغب ليس غير . يدل على ذلك ما اورد صاحب الاغاني من حديث رفع الى اسحق مفاده ان ابراهيم بن المهدي يوزع وقد قلّ المال عنده . « وكان قد لجأ اليه اعراب من اعراب السواد وغيرهم من اوغاد الناس فاحتبس عنهم العطاء . فجعل ابراهيم يسوّفهم ولا يرون له حقيقة . الى ان خرج اليهم رسوله يوماً ، وقد اجتمعوا وضجوا ، فصرّح لهم بانه لا مال عنده . فقال قوم من غوغاء اهل بغداد : « اخرجوا الينا خليفتنا يغني لاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ، ولاهل هذا الجانب ثلاثة اصوات ، فتكون عطاء لهم . . . » [1] وكفى بهذا القول دليلاً على روح التهكم في اهل بغداد ، وعلى انهم لم يقيموا وزناً لهذا الخليفة الجديد . ومن الادلة ايضاً انه عندما مات علي الرضا ، في السنة التالية ، وكتب المأمون الى اهل بغداد قائلاً : « انا نقمتم عليّ بسبب علي الرضا وقد مات . . . » ثاروا على ابراهيم بن المهدي فخلعوه ، فهرب واختفى . ولم ينل بغداد من خلافته الا مزيد فوضى ، وتتابع خراب .

على عهد المأمون

وفي ١٥ صفر سنة ٢٠٤ للهجرة الموافق الى ١١ آب ٨١٩ دخل المأمون بغداد ، فنزل الرصافة اولاً [2] واقام في قصره على شاطئ دجلة ، وهو قصر

١) الاغاني ١٨ : ٤٣ – ومن هذا النوع قول دعبل في هجوه ابراهيم :
خليفةٌ مصحفهُ البرَبَطُ

٢) الطب : ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور : الجزء السادس من كتاب بغداد (نشر Keller) ليبسيك ١٩٠٨ ، ص ٢

جعفر القديم المعروف بالقصر « الجعفري » ، و«الشطي» ، ثم « المأموني ».

فرممه ووسعه ، « واقتطع جملةً من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحيّرًا لجميع الوحوش ، وفتح لـه باباً شرقياً الى جـانب البرية ، واجرى فيه نهرًا ساقه من نهر المعلّى . وابتنى مثلـه قريباً منه منـازل برسم خاصته واصحابه سُميت المأمونية »[1].

ثم انتقل المأمون الى قصر الخلد ، واهتم بترميم عاصمته ، وتزيينها ، فضلًا عن اساليب اللهو والسرور ، بكتب العلم والادب مما افاض به المؤرخون . حتى بلغت بغداد في عصره درجةً سامية من الازدهار انستها النكبات السابقة. فكثرت الثروات فيها ، وانغمس اربابها في الترف انغماساً شديدًا . ولعلنا نرى شاهدًا على هذا في وصف عرس المأمون ، اذ عُقد له على بوران بنت الحسن بن سهل سنة ٨٢٥ ، نختصر ذلك عن المؤرخين ولا سيما المسعودي[2].

كان الحسن بن سهل ، ابو العروس ، يقيم في فم الصلح ، وهي بلدة على ضفة دجلة بالقرب من واسط . فانحـدر المأمون في النهر مع اهله واصحـابه وامرائه وبعض جنده . ونزل ضيفاً على الحسن تسعة عشر يوماً حتى كان ميعاد العرس . فخرج الناس لحضوره ، بطريق النهر ، حتى قيل ان عدد المـلاحين في السفن التي كانت تنقل الناس بلغ عشرة آلاف وقيل : بل كان ستة وثلاثين الفاً . هذا عدا الزوارق والسفن الخاصة .

« ونثر الحسن في ذلك الاملاك (العرس) ما لم ينثره ولم يفعله ملـك قط في جاهلية ولا اسلام. وذلك انه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات ودواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فيجـد على قدر اقباله وسعوده فيها . فيمضي الى الوكيل الذي نُصب لذلك ، فيقول له : ضيعة يُقال لها فلانة من طسوج كذا من رستـاق كذا . وجارية يقال لهـا

---

١) ياقوت : ك. م. ١ : ٨٠٧

٢) المسعودي : مروج الذهب (طبعة Barbier de Meynard) ٧ : ٦٥-٦٦

فلانة . ودابة صفتها كذا وكذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم وفوانج المسك وبيض العنبر . وانفق على المأمون وعلى جميع قواده واصحابه وسائر من كان معه من جنوده ايام مقامه عنده حتى المكارين والملاحين والحنالين ، وكل من ضمّه عسكره من تابع ومتبوع ومرتزق وغيره . فلم يكن احد الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يتطعم ولا مما تعلفه البهائم .»

هذا بعض ما انفقه الحسن بن سهل . عدا ما انفقه المأمون . ومهما يكن من مبالغة فان الاحتفال بهذا العرس ، واهتمام الناس به على اختلاف طبقاتهم لدليل على الرخاء الذي كانت تتمتع به الدولة اذ ذاك . وكان من جملة تقادم المأمون أن اهدى الى عمه قصره المأموني ، قصر جعفر القديم ، فعُرف من ثم « بالقصر الحسني » . وقد انتقل هذا القصر الى بوران بعد وفاة ابيها فاقامت فيه حتى خلافة المعتمد على الله (٨٧٠–٨٩٢) فطلبه منها ، فاصلحته واهدته اليه .

الانتقال بالخلافة الى سامرّا

ولي الخلافة بعد المأمون اخوه المعتصم فكان من آثاره في بغداد انه شق نهر موسى . ولكن لم يقم فيها طويلاً ، حتى اخذ اهل المدينة يتشكون من جنوده من الترك ، وقد كثروا حتى بلغوا السبعين الفاً فكانوا يؤذون الناس . فرأى المعتصم ان يبعدهم عن المدينة . فانتقل بهم ، وبارباب دوانره ، الى محلة تبعد ثلاثة ايام عن بغداد صعوداً على ضفة دجلة ، فبنى فيها مدينة سامرّا او سُرَّ من رأى ، التي صارت عاصمةً للخلافة مدة ٥٦ سنة (٨٣٦-٨٩٢) فاقام فيها ثمانية خلفاء .

اما بغداد فكان يحكمها الولاة في تلك المدة . وكان اكثرهم من اسرة طاهر بن الحسين . ولا يظهر ان انتقال الخلافة والدوائر الرسمية منها أثّر كثيراً فيها من حيث التجارة وازدهار الاعمال .

نكبات جديدة

على ان انتقال الخلافة لم يكن ليجعل بغداد بمعزل عن الحركات الثورية وما تجرّه عادة من ملمّات ونكبات متنوّعة . من الحق ان الجيش التركي وما

يتطلق به من مرتزقة وشذّاذ وغوغاء ، وطبقات الحاشية التركية جميعها ، كانت قد انتقلت مع الخليفة فسلمت بغداد نوعاً من نتائج فوضاها المباشرة . الا انها لم تسلم من تأثير هذه الفوضى ، عندما كانت تقوى في سامرّا فتتجاوز الى الثورة . كما حصل في السنة ٨٦٥ ، اذ ثار الجيش على المستعين (٨٦٢–٨٦٦) ، ولم يكن ذلك الا مظهراً من مظاهر استبداد الاتراك بالخلفاء البادئ منذ عصر المعتصم (٨٣٢ – ٨٤٢) . فهرب الخليفة ليلاً ، وانحدر الى بغداد . فبايع الخدم في سامرّا المعتزّ بالله . فكان من اول اعمال الخليفة الجديد ان جهّز جيشاً لمحاصرة بغداد والظفر بالمستعين . وكان حصار بغداد الثاني ، مؤدياً الى ما ادّى اليه الحصار الاول من خراب وحريق ونهب . وكأن الله خصّ الجانب الشرقي بتحمّل القسط الاوفر من النكبات فخربت محلات الشماسية والمخرّم

ثم تتابعت الثورات المتنوّعة في بغداد فدامت الفوضى اكثر من ثلاث سنوات (٨٦٦–٨٦٩) بين ظهور وخفوت .

اما في سامرّا فاخذت رقابة الاتراك على الخلفاء تشتدّ وطأة شيئاً فشيئاً . حتى كره المعتمد على الله (٨٧٠–٨٩٢) ان يظلّ في تلك البيئة الفاسدة ، فعاد بالخلافة الى بغداد في آخر ايامه .

الرجوع من سامرّا

القصر الحسني ، والتاج ، والثريا

وكان قد طلب من بوران[1] ، ارملة المأمون ، ان تعطيه القصر الحسني الذي كان المأمون قد اهداه الى عمه الحسن فانتقل اليها بعد وفاته . « فاستنظرت المعتمد[2] اياماً حتى رتّمته وبيّضته وجصّصته وفرشته باجمل الفرش واحسنه .

١) عاشت بوران ٧٦ سنة (٨٠٨–٨٨٤) وتزوّجها المأمون سنة ٨٢٥ ، كما تقدّم . وماتت في خلافة المعتمد المذكور فلم تدرك المعتضد (٨٩٢–٩٠٢) . واذاً فلا صحة لما ذكره بعض المؤرخين من انها اهدت القصر الحسني الى المعتضد . انما اهدته الى المعتمد ، كما ذكرنا اعلاه .

٢) لا المعتضد كما اورد الخطيب : ك . م . ص ٤٨ ، ونقل عنه ابن الجوزي : ك . م .

وعلّقت اصناف الستور على ابوابه وملأت خزائنه بكل ما يُخدم الخلفاء به . ورتّبت فيه من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة اليه.» [1] ثم اهدته الى المعتمد فكان يقيم مدة فيه ومدة في سامرّا حتى انتقل اليه نهائياً . ومات فيه.

وولّيه المعتضد بالله (٨٩٢-٩٠٢) ثم ابنه المكتفي (٩٠٢-٩٠٨) . وكانا من ارباب السطوة والهيبة ، ومن الراغبين في البناء والعمران . فقضت بغداد في عصرهما عهد راحة وطمأنينة واستعادت ماضي ازدهارها.

وكان من آثار المعتضد ان وسّع القصر الحسني واضاف اليه دوراً عديدة ، واقتطع قسماً من البرّية فجعله ميداناً . واحاط الجميع بسور . ثم وضع آساس قصر آخر سمّاه « التاج » . وكان ان خرج الى آمد في اثناء حفر الاساسات . فلما عاد « ورأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكره ذلك » وترك التاج . ثم اختطّ على ميلين منه ، على نهر موسى ، قصراً جديداً دعاه « الثريا » . ووصله بالقصر الحسني بواسطة سرداب معقود تحت الارض تمشي فيه الجواري والحرم والسراري . وجعل حول الثريا الجنان الزاهرة تترقرق فيها المياه ، على نحو ما وصف ابن المعتز في قوله :

سلمت ، امير المؤمنين ، على الدهر ... فلا زلت فينا باقياً واسع العمر !
حللت الثريا خير دار ومنزل ، فلا زال معمورًا ، وبورك من قصر ! . . .
جنان واشجار تلاقت غصونها ، وارقن بالانهار والروض المضر ،
ترى الطير في اعطافهنّ هوافياً تنقّل من وكر الى وكر . . .
وبنيان قصر قد علت شرفاته كصفّ نساء قد تزيّن في الأزر
وانهار ماء كالملاس محفّت اترعنّ اولاد الرياحين والزهر
وميدان وحش تركض الخيل وسطه فيوخذ فيها ما يشاء على قدر . . .
عطايا امير المؤمنين كثيرة بانك اولى الناس فيهنّ بالشكر . [2]

وظلّ القصر قائماً حتى فاضت دجلة فيضاناً قوياً سنة ٤٦٦ هـ. [3] (١٠٧٣-

---

ص ١٥ : على اخبار الدار راجع الآخر القائل ان المعتضد طاب القصر.

١) المقتبس : الموضع المذكور ؛ وياقوت : ك. م. ١ : ٨٠٨

٢) ابن المعتز : الديوان . طبعة الانسي ، بيروت ١٣٣١ (١٩١٣) ص ١٢٨-١٢٩

٣) ابن الجوزي : ك. م. ص ١٧

١٠٧٤) وهو « الفرق الاول » كما يدعوه ياقوت[١] ، فاحدثت خراباً عظيماً في بغداد ، وكان من جملة ذلك خراب الثريا .

اما التاج فقد اتمّ بناءه المكتفي بالله (٩٠٢-٩٠٨) ابن المعتضد ، بواجهة مبنية على « خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين خمسة اذرع »[٢] . وكان المعتضد قد امر بنقض القصر الابيض الكسروي في المدائن ، ذلك الذي باشر نقضه المنصور ثم اقلع ، فنُقضت مشارفه ورُضت في الاساس . ثم نُقض ما تبقّى منه ، على عهد المكتفي ، ورُضت آجرّه في مشارف التاج . وكان يتولى العمل رجل اسمه ابو عبد الله النقري ، فاعتبر هذا الامر وبكى ، على ما اورد ياقوت ، وقال : « ان فيما نراه لمعتبراً : نقضنا شرفات القصر الابيض وجعلناه في مسناة التاج ، ونقضنا اساساته فجعلناها شرفات آخر . فسبحان من بيده كل شيء حتى الآجرّ . »[٣]

وبنى المكتفي الى جنب القصر قبة دُعيت قبة الحمار « لانه كان يُصعد اليها في مدرج حولها على حمار لطيف ، وهي عالية مثل نصف الدائرة . »[٤]

فكانت هذه البنايات من اعاجيب بغداد . وبقيت كذلك مدة قرنين ونصف حتى كانت السنة ٥٤٩ هـ. (١١٥٤) ، في عهد المقتفي لامر الله (١١٣٦-١١٦٠) ، فوقعت صاعقة على القصر فتأججت النار فيه وفي القبة « وبقيت تعمل تسعة ايام . ثم اطفئت وقد صيّرته كالفحمة . »[٥]

بعد المكتفي بالله ارتقى عرش الخلافة المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢)[٦] . وكان ، على ضعف سلطته تجاه تأثير الخدم النافذ[٧] ، وافر رغبة في مظاهر الاناقة والترف . فزاد في زينة دار الخلافة زيدةً عجيبة قد يفوق وصفها

١) ياقوت : ك . م . ١ : ٨٠٨ ٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٨٠٩

٣) تخلل خلافته خلافةُ ابن المعتز يوماً واحداً ، بل بعض يوم ، سنة ٩٠٨ ، وخلافة القاهر يومين سنة ٩٢٩

٤) من الامثلة على هذا التأثير ما يذكر ابن العبري في تاريخ السنة ٣١٧ هـ. (٩٢٩) : « وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة خُلع المقتدر بالله عن الخلافة ، وبويع اخوه القاهر بالله محمد ابن المعتضد فبقي يومين . ثم اعيد المقتدر . وكان السبب في ذلك استيحاش مؤنس الخادم . »
(ابن العبري : ك . م . ص ٢٧٢-٢٧٣)

وصف قصور الاساطير والحكايات . وقد نقل لنا الخطيب البغدادي تفصيل مظاهر هذه الفخفخة عند ذكره وفد الروم القادم على المقتدر . واننا نستند اليه في الاشارة باختصار الى ما كان في دار الخلافة من مظاهر الابهة . من ذلك « دار الفيلة » فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي . و« دار السباع » فيها مائة سبع . وبستان في وسطه « بركة رصاص قلمي حواليها نهر رصاص قلمي احسن من الفضة المجلوّة ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، فيها اربع طيارات لطاف مذهبة مزيّنة بالدبيقي المطرّز . » وفي البستان اربعمائة نخلة طول كل واحدة خمس اذرع . و« دار الشجرة » وفيها « شجرة في وسط بركة كبيرة مدوّرة فيها ماء صافٍ . وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضّضة . واكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهّب . وهي تتايل في اوقات ، ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرّك الريح ورق الشجر . وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . »[1] ويزيد الخطيب ذاكراً تماثيل الفرسان القائمة حول البركة ، وهو يؤيد ما قلناه سابقاً عند ذكر صنم « القبة الخضراء »[2] . وهذا كلامه بنصه : « وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد البسوا الديباج وغيره . وفي ايديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد ، فيظنّ ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد . وفي الجانب الايسر مثل ذلك . »[3] الى ما هنالك من مخازن السلاح ، وانواع الفرش والبسط الفائقة ، والرياش الفاخر ، وكثرة الخدم والغلمان وتنوّع مراتبهم واختصاصياتهم حتى لقد كان في دار الخلافة سبعة آلاف خادم : اربعة آلاف بيض ، وثلاثة آلاف سود ، وسبعمائة حاجب ، وكان عدد الجيش مائة وستين الف فارس وراجل[4] . الى غير ذلك من آلات الابهة ومظاهر العظمة مما حار به موفدا الروم فخلب لبهما كما يُستخلص من الوصف الطويل الذي خصه المؤلف بتلك الوفادة[5] .

١) الخطيب : ك . م . ص ٥٣-٥٤ ٣) راجع ص ٨١
٣) الخطيب : ك . م . ص ٥٤ ٤) الخطيب : ك . م . ص ٥١
٥) الخطيب : ك . م . ص ٤٩-٥٦ . — اما الموفدان فكانا البطريق جان رادينوس

وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا ان عصر المقتدر كان ، كعصر الرشيد والمأمون ، من اعظم العصور عائدةً على بغداد من حيث ازدهارها ، واتساع حركتها ، ووفرة مظاهر البذخ والترف فيها[1] .

على ان للمدن ، كما للافراد والشعوب ، سني نعيم وسني شقاء ، وعصور ازدهار وعصور انحطاط . وقد مرّ بنا ذكر شيء مما توالى على بغداد من النوائب . وكان لها ان تقاسي شيئاً من ذلك ايضاً بعد عصر المقتدر . فقد تعدّدت مظاهر الشغب ، ولاسيما في الجيش ، وما يليها من نهب وحريق ، حتى ضعُفت الخلافة شيئاً فشيئاً منذ عصر الراضي (٩٣٤—٩٤٠) فقويت شوكة الخدم وازداد نفوذهم ، بل اصبحوا الحكام المطلقين . فامتدّ الاختلال في عناصر السلطة الاصلية ، وكثرت الفوضى والفتن الداخلية والنكبات ، ما مهّد السبيل لدخول البويهيين بغداد سنة ٩٤٦ ؛ فتشعّبت السلطة ، وتعدّدت بلاطات الملوك والامراء ، وفي كل منها طائفة من الادباء . فلم تبقَ بغداد تلك العاصمة الادبية العظمى ، بل انحطت الى درجة غيرها ، بل الى احطّ من درجة غيرها من العواصم التي تقسّمت مظاهر الادب العربي منذ القرن العاشر . ولا يدخل في بحثنا هذا درس بغداد بعد ذاك العصر[2] .

وميشال تركاراس ، اوفدهما الامبراطور قسطنطين پورفيروجينيت في طلب المهادنة والفداء . فاحسن المقتدر وفادتهما ، واجابهما الى رغبة الامبراطور . اطلب ابن العبري : ك . م . ٢٧٠ ؛ و Salmon, *op. cit.*, p. 132, note 1.

١) وبينا كانت بغداد تتقدّم وتستبد ازدهارها بسرعة عجيبة ، كانت سامرّا تنحطّ وتتأخر بسرعة عجيبة كذلك . فبعد ان اوجدها المعتصم كبيرةً ضخمةً دفعة واحدة ، وبلغ بها المتوكل اسمى درجات الفخامة ، هبطت اذ انتقل عنها المقتدر هبوطاً عظيماً ، حتى لم يفضِ على ذلك الانتقال بضع عشرة سنة الا كان الخراب قد شمل اكثرها ، واخذ الناس يلوّنون انقاض قصورها المتداعية « كالنيل الماثت تُسلّ منه العظام » على قول ابن المعتزّ :

قد اقفرت سُرّ من را ، وما لشيء دوامُ !
فالنفضْ يُعمل منها ، كأنما آجامُ ،
ماتت ، كما مات قبلٌ تُسلّ منه العظامُ !

٢) يجد المطالع في بحثة ماسينيون Massignon, *Mission...*, p. 77-118 وصفاً اجمالياً لما تبقّى من آثار بغداد القديمة حتى السنة ١٩٠٨

عدد سكان بغداد

احصائيات متنوّعة

كم كان يعيش من الناس في هذه المدينة العظيمة ؟

نُقرّ بكل بساطة ان مؤرخي العرب ، الذين حسبوا لنا كم دخل من لبنة في كل ساف من سور مدينة المنصور ، وعدّوا الدنانير والدراهم المنفقة على بناء تلك المدينة ، وذرعوا كل ما بناه الخلفاء طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، لم يكلفوا انفسهم القيام باحصاء معقول لسكان تلك المدينة. ولا يعني هذا ان ليس لدينا ارقام ... ان الارقام لكثيرة حتى تدفعنا تلك الكثرة الى الارتياب والشك فالظن ان اربابها لا يقدّرون ماهيتها ، ولا ما تمثّل في الحقيقة . وكل هذه الارقام ترجع الى خراب بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨ ، زمن انقراض الدولة العباسية ، وكانت العاصمة قد انحطت كثيراً عن عظمتها السابقة ، فدخلها التتار واعملوا السيف في اهلها . وهنا يتبارى المؤرخون في عدّ القتلى فيتجاوزون مئات الالوف الى الملايين ، متنقلين بين « ثمانمائة الف » ، « وما ينيف على الفي الف وثلثمائة الف وثلاثين الف نفس » لا اكثر ولا اقل[1] .

فاذا كان هذا عدد القتلى في بغداد ، آخر زمن الخلافة العباسية ، وقد خرب الكثير من احيائها بسبب الثورات والحرائق والمشاغبات المتتابعة . فكم وجب ان يكون عدد سكانها على عهد المأمون او المقتدر ؟

فواضحٌ اذاً ان هذا الاحصاء غير معقول ، وان هذا القياس لا يمكن ان يؤخذ به .

على ان هناك قياساً آخر يُحيل الى الدارس ، اول وهلة ، انه يمكن الاعتماد عليه . وهو عدد الحمامات والمساجد في بغداد ابان ازدهارها ، وقد عُني الخطيب بذكرها .

اما الحمامات فقد نقل الخطيب عمن قرأ في « كتاب بغداد » لطيفور الكاتب

---

١) اطلب في ذلك بحثاً دقيقاً لحبيب زيات : « المجازفة بالارقام في التاريخ » في المشرق (٣١ [١٩٣٣] : ١٦٦-١٦٧)

في القرن التاسع († ٨٩٣) انها كانت ستين الفاً . وزاد : « اقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمّامي ، وقيّم ، وزبّال ، ووقّاد ، وسقّاء . يكون ذلك « ثلثمائة الف رجل» . ثم حسب كم يُنفق من الصابون فمن الزيت ليلة العيد[1] . . .

اما المساجد فذكر المؤرخ نفسه « انه يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد ، يكون ذلك ثلثمائة الف مسجد . وتقدير ذلك ان يكون اقلّ ما يكون في كل مسجد خمسة انفس ؛ يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان . »[1]

٣٠٠,٠٠٠ شخص لخدمة الحمامات ، و١,٥٠٠,٠٠٠ شخص لخدمة المساجد ! أوَ يمكن ان نتصوّر هذا في بغداد مهما كانت ضخمةً ، ومهما بلغ من رغبة اهلها في النظافة ، ومهما كان من تقواهم وشعورهم الديني . لا شك في ان الحمامات كانت عديدة لاسباب منها كثرة الغبار والعرق في تلك المنطقة الحارة ، ومنها الرغبة في التنعم والرفاهية ، ومنها فروض الاسلام الدينية من وضوء وتطهير . . . ولا شك في ان المساجد كانت عديدة كذلك ، بل كان من عادة الوزراء والكبراء ان يبنوا المساجد بدليل ما يُستخرج من قول مَن هجا البرامكة برياءهم وتظاهرهم بالدين الاسلامي على كفرهم الباطني ، قال :

ان الفراغ دعاني الى بناء المساجد
وان رأيي فيها كرأي يحيى بن خالد !

اما ان تبلغ الحمامات والمساجد الى العدد المذكور اعلاه فغير معقول . وما قولكم في مدينة يبلغ عدد خدمة الحمامات والمساجد فيها مليوناً وثمانمائة الف ! . . . ايجب ان يقلّ عدد سكانها عن الخمسين مليوناً ؟ . . . وهي ارقام اقرب الى الخيال والمجازفة منها الى العقل السليم .

ولعل عدد الحمامات كان يدور حول ثلاثة آلاف ، كما ذكر الخطيب نفسه في احدى رواياته المتعدّدة[2] ، وقد يكون عدد المساجد قريباً من هذا الرقم .

وهناك احصاء آخر قد يقدّمنا بعض الشيء في تقدير عدد السكان ، وهو احصاء الاطباء . وتفصيل ذلك ان المتطببين كثروا في بغداد في اوائل القرن العاشر ، وكان فيهم عدد من الدجالين يجازفون بارواح العباد بل ان بعضهم سقى

١) الخطيب : ك . م . ص ٧٤-٧٥ ٢) الخطيب : ك . م . ص ٧٥

رجلاً دواء فاسداً فمات الرجل . فامر الخليفة ، إما المقتدر وإما القاهر ، بمنع جميعهم عن التطبيب الا من امتحنه سنان بن ثابت († ٩٤٣) واعطاه تصريفاً . فصاروا اليه فامتحنهم وصرّف كلًّا منهم بما يصلح له . وقد بلغ ما اعطى من المأذونيات ثمانمائة وستين في جانبي بغداد . هذا عدا مَن استغنى بشهرته عن الامتحان ، وعدا من كان متعلقاً بخدمة السلطان . فاذا قدّرنا عدد هؤلاء الاطباء المشهورين قريباً من المائة والخمسين ، كان لنا في بغداد ، زمن ازدهارها ، نحو الف طبيب .

واذا اعتبرنا الآن مدينة بيروت ، وهي مشهورة بكثرة اطبائها ، رأينا ان عددهم فيها يبلغ ٢٦٥ طبيباً . اما سكان بيروت فيبلغون ، بحسب احصاء سنة ١٩٣٢ ، ١٦٠,٧٥٩ يُضاف اليهم كثير من سكان العاصمة الذين تقيدوا في الجبل ، وعدد من الذين لم يحصوا . وعليه فاننا لا نبالغ اذا رفعنا هذا الرقم الى المائتي الف . فيكون فيها طبيب لكل ٧٥٤ شخصاً تقريباً . هذا في بيروت المشهورة بكثرة الاطباء . اما في بغداد العباسيين فيمكننا بكل سهولة ان نقدّر طبيباً لكل الف شخص ، فيكون لنا مجموع من السكان يقرب من المليون . وهو معقول .

وقد نصل الى النتيجة نفسها اذا ما استندنا الى مساحة بغداد في ذاك العصر . وهنا لا بد من العودة الى الخطيب . فقد ذكر عدة روايات في مساحة عاصمة العباسيين ، منها رواية طيفور وخلاصتها ان مساحة بغداد كانت ، في القرن التاسع ، ٥٣,٧٥٠ جريباً . ورواية محمد بن يحيى البالغة مساحة بغداد ٤٣,٧٥٠ جريباً[1] .

اما الجريب فيختلف مقداره باختلاف البلدان . وفي كتب اللغة ومجموعات المكاييل تقادير عديدة . منها انه كان يبلغ عشرة اقفزة والقفيز من الارض مائة واربع واربعون ذراعاً ، ومنها انه اربعة اقفزة ، ومنها انه عشرة آلاف ذراع ؛ وهذا الاختلاف ناتج عن ان الجريب كان مقياساً للكيل ، ثم قياساً للمساحة التي تتسع لبذار جريب من الحنطة . فخلط الناس بينها وبين كسر

١) الخطيب : ك . م . ص ٢٤

الكيل وكسر المساحة . ولعلّ الاقرب الى الصواب ما ذكره قدامة من ان الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، ويريد الذراع السوداء او المأمونية المربعة ، وقد تقدم لنا انها تعادل نحو نصف المتر.

فاذا اعتبرنا هذا المقدار للجريب وضربنا به العدد المذكور لمساحة بغداد عن طيفور كان لنا ٥٣,٧٥٠ × ٣,٦٠٠ = ١٩٣,٥٠٠,٠٠٠ ذراع مربعة . واذا حوّلناها الى امتار على حساب الذراع السوداء المتقدّمة الذكر كان لنا ٤٨,٣٧٥,٠٠٠ متر مربع[1] ، وهو ما يقرب من تقدير ستريك لمساحة بغداد في عهد المهدي ، اذ يقول انها كانت تبلغ من سعة الى ثمانية كيلومترات في مثلها[1].

هذا معدّل ما ذكره طيفور († ٨٩٣) . ولا يخفى ان بغداد اتسعت بعد هذا العهد ، ولاسيما زمن المكتفي والمقتدر ، حتى اننا لا نخطئ اذا اضفنا الى تقديرنا وتقدير ستريك ثلث قيمته ، فتبلغ مساحتها من ٦٠ الى ٧٠ مليوناً من الامتار المربعة ، يخرج منها لا اقل من عشرة ملايين مساحة القصور والبساتين والشوارع والساحات الطلقة والمقابر . ثم اذا جعلنا للبيت الصغير المتسع خمسة انفار فقط من ٣٠٠ الى ٤٠٠ متر مربع كان لنا ما يقرب من مائتي الف بيت مجموع سكانها نحو مليون نفس ، عدا ارباب القصور وحاشية الخلافة ، وهو معقول . وقد وصلنا الى مثل هذا التقدير في الاستناد الى عدد الاطباء.

هذا ومما يدل على سعة بغداد القديمة ووفرة عدد سكانها ان بغداد الخالية

---

١) لقد عرض الامير شكيب ارسلان لهذا الموضوع في مقال دعاه « مدينة السلام » وصف فيه تاريخ بغداد للخطيب (مجلة « الثقافة » دمشق ، العدد الاول : نيسان ١٩٣٣ ص ٤-١٥) فاعتمد الرواية الثانية الثالثة : ٦٣,٧٥٠ جريباً ، واعتبر الجريب عشرة اقفزة ، والقفيز مائة واربع واربعين ذراعاً ، فكان له « ثلاثة وستون مليون ذراع مربع » (كذا في ص ١) ثم اعتبر الذراع ثلثي المتر فطرح من قيمة المساحة ثلثها فكان له ٤٢,٠٠٠,٠٠٠ متر مربع . وفاته ان عملية الطرح هذه فاسدة ، لان الذراع البسيطة اذا كانت ثلثي المتر البسيط ، لا يمكن ان تكون الذراع المربعة ثلثي المتر المربع ، وهو من بديهيات علم الحساب . . . واذاً ، فتكون النتيجة انه بالغ في تصغير بغداد ، واعطاها مساحة لا يمكنها ان تسع « الثلاثة الملايين » التي يريد ان يجعلها فيها (ص ١٤) .

١) Streck, *loc. cit.*, p. 577

لا تحتل اكثر من ربع المساحة القديمة ، على كون سكانها يقربون اليوم من ثلاثة الف . وكذلك ان مدينة الكاظمين التي كانت سابقاً في اطراف بغداد الكبرى تبعد عن بغداد اليوم نحو عشر دقائق بالسيارة .

وللقدماء شهادات عديدة على كثرة السكان في هذه المدينة الهائلة . من ذلك قول ابن الجوزي ان المجتاز كان «لا يخلص في سوق الكبش والاسد — وهما في اطراف المدينة — من كثرة الزحمة .»[1] وما رواه ياقوت عن عبد الملك ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، انه قدم بغداد فرأى كثرة الناس بها فقال : «ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت ان الناس قد نودي فيهم .»[2]

واذاً فلا نستغرب ان يبدأ ياقوت مقاله عن بغداد بقوله عنها «أمّ الدنيا وسيدة البلاد .»[3] ولا نستغرب كذلك ان يسأل الامام الشافعي تلميذه يونس بن عبد الاعلى : «يا يونس دخلت بغداد ؟» فيجيب يونس : لا . فيقول الامام : «يا يونس ، ما رأيت الدنيا ، ولا رأيت الناس !»[4]

اما العناصر البشرية التي كانت تتعايش في هذه «الدنيا» ، فتمتزج ، وتتنافس ، وتتطاحن في سبل الحياة المتنوعة ، فسنخصّ بدرسها بحثاً آخر ، ان شاء الله .

ملحق

رأينا ان نلحق بهذا البحث جدولين :

الجدول الاول باسماء الخلفاء العبّاسيين في الحقبة التي يحسنا درسها ، وهو معروض على مظهرين : ١ً حسب تسلسل خلافاتهم — ٢ً حسب تسلسل اسنامهم

الجدول الثاني باسماء مؤرّخي بغداد عصرًا فعصرًا .

---

١) ابن الجوزي : ك . م . ص ٢٤

٢) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٨٧

٣) ياقوت : ك . م . ١ : ٦٧٧

٤) ابن الجوزي : ك . م . ص ٢٢

الجدول الاول

١ ــ الخلفاء حسب تسلسل خلافاتهم

١ السفّاح	٣٠ ت ١	٧٤٩ – ٧٥٤		الهاشمية
٢ المنصور	٩ حزيران	٧٥٤ – ٧٧٥		دار السلام
٣ المهدي	٧ ت ١	٧٧٥ – ٧٨٥		اتمّ الرصافة
٤ الهادي	٤ آب	٧٨٥ – ٧٨٦		قُتل
٥ الرشيد	١٥ ايلول	٧٨٦ – ٨٠٩		قصر جعفر
٦ الامين	٢٤ اذار	٨٠٩ – ٨١٣		حصار بغداد الاول ٨١٢ – قُتل
٧ المأمون (١	٢٦ ايلول	٨١٣ – ٨٣٣		دخل بغداد ٨١٩ – المأمونية
٨ المعتصم بالله (٢	٧ آب	٨٣٣ – ٨٤٢		قصر ثم موسى – سامرّا ٨٣٦
٩ الواثق بالله	٥ ك ٢	٨٤٢ – ٨٤٧		في سامرّا
١٠ المتوكل على الله	١٠ آب	٨٤٧ – ٨٦١		في سامرّا
١١ المنتصر بالله	١١ ك ١	٨٦١ – ٨٦٢		في سامرّا
١٢ المستعين بالله	٩ حزيران	٨٦٢ – ٨٦٦		عاد الى بغداد – الحصار الثاني ٨٦٦
١٣ المعتزّ بالله	٢٥ ك ٢	٨٦٦ – ٨٦٩		في سامرّا – قُتل
١٤ المهتدي بالله	١١ تموز	٨٦٩ – ٨٧٠		في سامرّا – قُتل
١٥ المعتمد على الله	٢١ حزيران	٨٧٠ – ٨٩٢		عاد الى بغداد
١٦ المعتضد بالله	١٦ ت ١	٨٩٢ – ٩٠٢		الثريا والتاج
١٧ المكتفي بالله	٥ نيسان	٩٠٢ – ٩٠٨		اتمّ التاج
١٨ المقتدر بالله (٣	١٣ آب	٩٠٨ – ٩٣٢		وفد الروم ٩١٧
١٩ القاهر بالله	٣١ ت ١	٩٣٢ – ٩٣٤		خُلع
٢٠ الراضي بالله	٢٤ نيسان	٩٣٤ – ٩٤٠		انحطاط الخلافة
٢١ المتقي لله	٣٣ ك ١	٩٤٠ – ٩٤٤		خُلع
٢٢ المستكفي بالله	١٢ ت ١	٩٤٤ – ٩٤٦		خُلع وقُتل ١٥ ك ٢ ٩٤٦

١) بينما كان لا يزال في خراسان ، بويع في بغداد عمه ابراهيم بن المهدي ولُقّب « بالمبارك » (٢٦ تموز ٨١٧ - ١٨ ك ١ ٨١٨)

٢) بويع للمعتصم من المأمون في دمشق ٨٣٣ – وبايع العلويون محمد بن القاسم العلوي ٨٣٣

٣) تخلّل خلافته خلافة ابن المعتزّ « المرتضى » يوماً واحداً (١٨ ك ١ ٩٠٨)، وخلافة القاهر يومين (٢٨ شباط ٩٢٩)

الجدول الاول

٢ ـ الخلفاء حسب تسلسل انسابهم

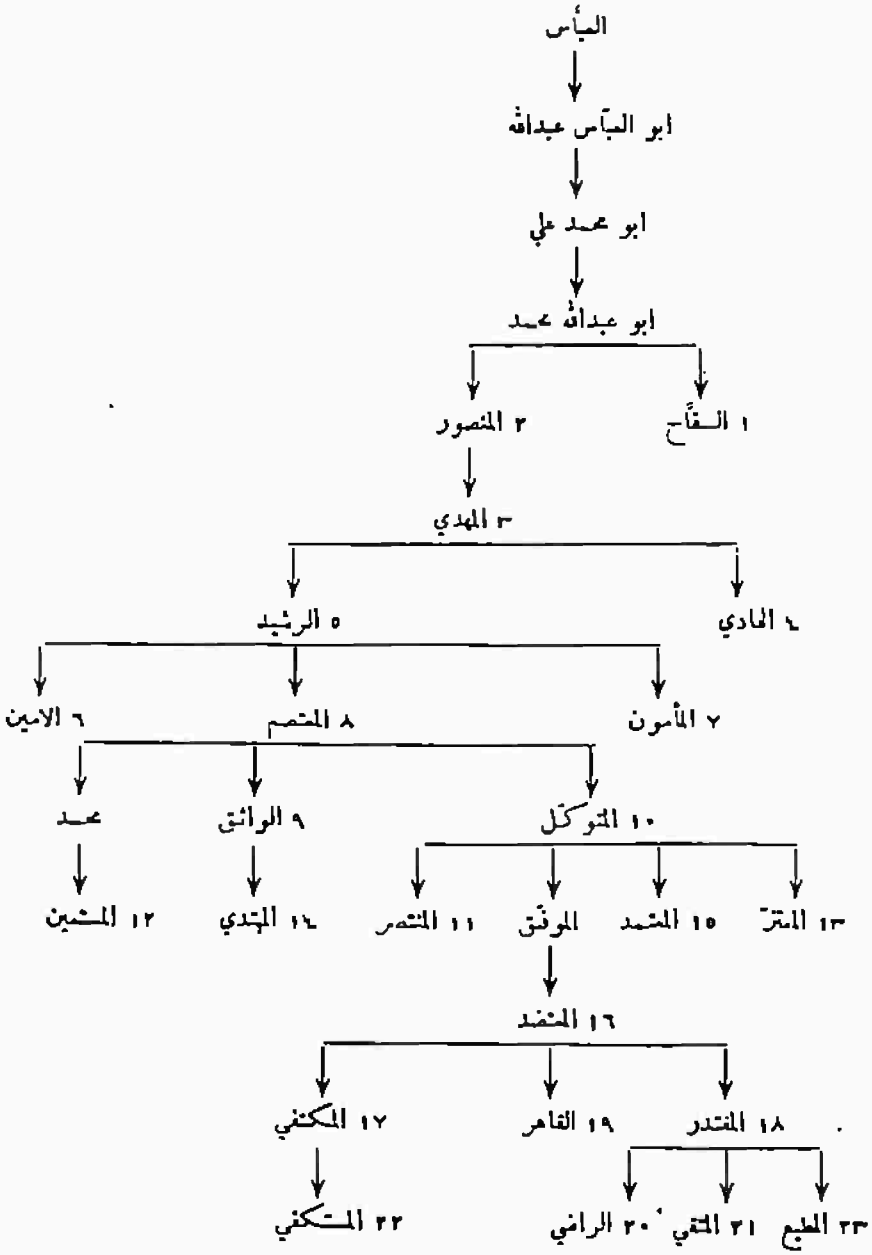

الجدول الثاني

مؤرّخو بغداد

نذكر في هذا الجدول اشهر من كتب عن بغداد من مؤرّخين ، وجغرافيين ، ورحّالة ، ممن امكننا الوقوف على آثارهم :

القرن التاسع :

ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور : كتاب بغداد . لم يصل الينا منه الا الجزء السادس ، محفوظًا في المتحف البريطاني في لندن ؛ وقد نشره منس كلّر بخطّه ، في ليبسك سنة ١٩٠٨ :

Dr H. Keller, *Sechster Band des Kitâb Bagdâd von* Aḥmad ibn abî Ṭâhir Ṭaifûr, Leipzig, 1908

البلاذُري : فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٦٦

ابن رُسته : الاعلاق النفيسة (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٩١

اليعقوبي : كتاب البلدان — في آخر كتاب ابن رسته ، في الطبعة المتقدم ذكرها .

ابن خُرداذبَه : المسالك والممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٩

قُدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصنعة الكتابة : منتخبات منه في آخر كتاب ابن خُرداذبه ، في الطبعة المتقدم ذكرها .

ابن الفقيه الهمذاني : مختصر كتاب البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٥

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٨٠

القرن العاشر :

المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (طبعة Barbier de Meynard) باريس ، ١٨٧٧

الاصطخري : مسالك الممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٠

ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٣

المقدسي : معرفة الاقاليم (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٧

ابو الفرج الاصبهاني : كتاب الاغاني ، بولاق ، ١٨٦٦

ابن النديم : الفهرست (طبعة Flügel) ليدن ، ١٨٧١

ابن مسكويه : كتاب تجارب الامم (طبعة Amedroz) مصر ، ١٩١٦

القرن الحادي عشر :

الهلال الصابئ : نحفة الامراء في تاريخ الوزراء ؛ ويليه الجزء الثامن من تاريخه (طبعة Amedroz) بيروت ، ١٩٠٤

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد – نشر مقدمته جورج سلمون في كتابه الآتي ذكره، وهي وحدها ضمنا في الموضوع الحالي . ثم نشر التاريخ في القاهرة، ١٩٣١

القرن الثاني عشر :

ابن الجوزي : مناقب بغداد (طبعة الاثري) بغداد، ١٣٦٢ هـ. (١٩٢٣)

ابن جبير : رحلته (طبعة Wright) ليدن، ١٨٥٢

القرن الثالث عشر :

ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ليبسيك، ١٨٦٦

ابن الاثير : الكامل، مصر ١٢٩٠ هـ. (١٨٧٣)

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) بيروت، ١٨٩٠

ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية (طبعة Derenbourg) باريس، ١٨٩٥

القرن الرابع عشر :

ابو الفداء : تقويم البلدان (طبعة de Slane et Reinaud) باريس، ١٨٤٠

ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (طبعة Defrémery et Sanguinetti) باريس، ١٨٥٩

القرن التاسع عشر :

البستاني : دائرة المعارف : المجلد الخامس، بيروت، ١٨٨١

نابليون الماريني : نزهة العباد في مدينة بغداد، بيروت، ١٨٨٧

القرن العشرون :

G. Le Strange, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford. 1900

Clément Huart, *Histoire de Bagdad dans les temps modernes*. Paris. 1901

G. Salmon, *L'introduction topographique à l'histoire de Bagdâdh d'al-Khatîb al-Bagdâdhi*, Paris, 1904

وانظر نقدًا لهذا الكتاب بقلم دي غوبه *J. As.*, 1904, p. 159-169

Habib Chiha, *La province de Bagdad*, Le Caire, 1908

L. Massignon, *Mission en Mésopotamie 1907-1908* [*Mémoires de l'Inst. français d'arch. orientale du Caire*, XXVIII, 1910 et XXXI, 1912]

M. Streck, *Baghdâd* [*Encyclop. de l'Islam, I*]

علي ظريف الاعظمي: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، بغداد ١٣٦٤ هـ. (١٩٢٦)

ومن اراد زيادة معلومات عن مؤرخي بغداد من عرب وفرس وترك وافرنج فعليه بلاغة واسعة في كتاب ماسينيون السابق الذكر المجلد ٢ : ٥٥-٥٦